

حَدِيث شَامِلٌ

عن

وَجُودِ اللَّهِ

تأليف

محمد عبد الظاهر عبد الرحمن

كلية الطب البشرى

جامعة اسيوط

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمود حبيب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

حَدِيثُ شَائِلٍ

عَنْ

وُجُودِ اللَّهِ

تأليف

محمَّد عبد الله بن عبد الرحمن

كلية الطب البشري

جامعة أسبوط

طبعة الأولى ٧ هـ الترجمة الثانية
١٩٦٩م العامة

بينهم وبين البر عن الرجل

تقلى يم

للاستاذ الدكتور محمد سلام مذكور

استاذ ورئيس قسم الشريعة بكلية حقوق القاهرة (*)

ذات يوم في صيف عام ١٩٦٨ اتصل بي شاب لم يسبق لي معرفته وطلب مني أن أحدد له موعداً للقاء . وعلمت من حديثه أنه طالب بكلية طب أسيوط . وأن موضوع المقابلة يتصل بمسألة علمية يريد أن يتحدث معي بشأنها .

وكعادتي من الاستجابة لسكل لقاء علمي ورغبتي في تشجيع المشتغل بالعلم استجبت له . . فجاءني وإذ بي أمام شاب حديث السن ضئيل الحجم . . واسع الافق يتميز بهدوء العبارة وسلامة الأسلوب مع محاولة الدقة في العبارة . . وميل واضح إلى النواحي الفلسفية . مما جعلني أتساءل عن سر انجازه إلى القسم العلمي والتحاقه بكلية الطب مع ما يبدو فيه من صلاحية للدراسات الادبية . فأجاب بأن هناك فكرة تسيطر عليه من بدء دراسته في الثانوي وهي اثبات وجود الله الذي لا شك فيه عن طريق العقل والعلم والكائنات وأنه سخر نفسه للالتحاق بالقسم العلمي ليأخذ حصيلة تمكنه من هذا البحث العلمي والتحق بكلية الطب ليتعرف عن قرب أثر تكوين الانسان وما فيه من أجهزة دقيقة في التأكد من وجود الله وحده . . وهكذا كان الحديث الأول بيني وبينه . فشدني هذا التفكير من ذلك الناشئ الصغير إلى أن أطيل الجلسة وأن أستمع إلى أفكاره

(*) مقرر موسوعة ناصر الفقهية ورئيس لجنة الشريعة بالمجلس الاعلى للشئون الإسلامية وقد مثلي جمهوري بتنا في عديدين المقترحات والمواقف الإسلامية الناجحة .

قلت وماهى المسألة العلمية التى تريد أن تتحدث معى بشأنها فأجاب بانى منذ فترة طويلة وأنا مستغرق بالتفكير والبحث فيما اتجه اليه من اثبات وجود الله عن طريق الميتافيزيقيا والفلسفة وعن طريق البحث المجرد عن كل عاطفة والذى يلتزم بمحدود التفكير العقلانى وحده حتى تكون فيه قوة دافعة لاتترك للباطل واشياعه فرصة الادعاء والاقتراء .

واستطرد قائلاً أنى بعد طول دراسة وبحث استطعت أن أكتب مذكرة قد تصلح أن تكون كتاباً فى الموضوع وقد طرقت ابواباً عديدة وأخذت وعوداً كثيرة من كثير من الشخصيات حول تشجيبى دون أن أجدها نتيجة حتى ولا بالتوجيه العلمى ولما سمعته ممن اتصلت بهم من تشجيعك لناشئين بالتوجيه والارشاد .

فذكرنى ذلك بنفسى حينما كنت ناشئاً فى مستقبل الحياة وكنت متطلماً طموحاً وكنت شغوفاً بالادب والاجتماع وتراجم زعماء الفكر وقادته .
وحينما بدأت أتطلع للنشر بمجريدة الأهرام وبعض المجلات وأنا طالب فى نهايه المرحلة الابتدائية فأوصدت فى وجهى بعض الابواب والنوافذ ووجدت منفذاً إلى بعضها الآخر حيث نشرت لى الأهرام فى ذلك الحين كما نشرت بعض المجلات الدينية مما كان له أكبر الاثر فى نفسى وبما كان دافعاً قويا لى فى السير قسماً لاشباع هوايى ودراسى

كما ذكرنى هذا الشاب الناشئ وهو يحدثنى عن الوعود التى معها دون أن يرى لها حقيقة ، وما بدا على ملامحه وهو يحدثنى عن ذلك من حسرة والم بما صربى وأنا صغير ناشئ منه وقد وجدت مقالتي وافكارى طريقاً إلى كثير من الصحف والمجلات دون أن تعرف هذه الصحف والمجلات عن الكاتب

حوى اسمه وحيثما استهوأنى أن ادرس حياة السيد جمال الدين الافغانى والمكتب
 عنه وأنا طالب بالثأوى وقد ملأت هذه الدراسة كل اوقات فراغى وتشبعت
 به واتصلت بعلمية القوم فى ذلك الحين من رجال الفكر والسياسة من المصريين
 وظهر المصريين وقت بدافع من قوة الشباب وحامسه إلى تشكيل لجنة بمن
 اتصلت بهم لاهياء ذكرى السيد جمال الدين الافغانى فتساقبت الصحافة الى
 تلقى اخبار هذه اللجنة وكنت مع حدة سنى المتحدث باسمها وفى ذات يوم
 ذهبت بنفسى إلى احدى الصحف اليومية السيارة التى كانت تنشر لى كل ما
 أرسله اليها من مقالات او اخبار عن اللجنة المذكورة لاقدم لهم مقالا واظهر
 لهم نفسى ليتعرفوا على شخصى كما تعرفوا على اسمى من قبل ولما دخلت بطاقتى
 الى رئيس التحرير فسرطان ما اذن لى بالدخول ولما رآنى استندى حاجبه
 قائلا انا اذنت للاستاذ مذكور بالدخول فكيف تأذن لغيره . . قلت بدورى
 انا ياسيدى - مذكور - فنظر إلى وقال انت الذى تكتب وتشر لك وانت
 الذى تتحدث باسم لجنة احياء ذكرى جمال الدين الافغانى - قلت باعتراز
 وفخر : نعم ياسيدى وهذا مقال آخر اقدمه بنفسى لجريدكم الغراء للنشر .
 لكنه دون أن ينظر فى المقال ولا أن يأذن لى بالجلوس ردها لى بنفس قائلا
 لا يوجد بالجريدة فراغ لنشرها . وطلب منى الانصراف . فخرجت وكلى
 الم وحسرة هذه المقارنة الغريبة .

وذكرنى ايضا حديث هذا الشاب الناشئ بواقعة أخرى حينما أخرجت
 كتابا بعنوان جمال الدين الافغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق وقد قدم
 له المرحوم . مصطفى عبد الرازق (باشا) ونشر ذلك الكتاب ووصلت
 إلى رسالة من أديب كبير من لبنان يخبرنى بقدمه إلى القاهرة ويطلب
 منى لقائه بفندق الكونتنتال وكان ذلك فى عام سنة ١٩٣٧ . ليعرض

على رغبته في أن يسهم معي في اخراج كتاب آخر حول هذا الموضوع .
وفي الموعد المحدد ذهبت اليه وأنا أكاد أظهر فرحاً وكلّ أمل وتطلع فلما مثلت
أمامه وقدمت له نفسي نظر إلى نظرة كلها عجب أو لعلها ندم وقال « شؤات
مذكور صاحب الكتاب » فقلت بكل فخر واعتزاز نعم ياسيدي وقد جئت
بناءً على خطابك لي وكان الخطاب معي (وما زال هندي) وبعد فترة قصيرة في
مقياس الزمن لكنها طويلة في نفسي ودون أن يأذن لي بالجلوس تمكّن من
مجلسه ووضع قنما على الأخرى وأخبرني بأنه قد عدل عن فكرته وأذن لي
بالانصراف . فانصرفت مبتلئاً حسرة والمآ نافقاً على صغر سني وعلى تطلعي
وطموحي ...

ثم تذكرت لقاء المرحوم مصطفى عبد الرازق (باشا) لي في منزله العاصم
وفي مكتبته الفسيحة خلف سراي عابدين وقد رحب بي واستمع إلى حديثي
وأعطاني من وقته الكثير وقرأت عليه جملاً من كتابي وقبل مشكوراً أن يعلي
على مقدمة لهذا الكتاب حتى أنساني هذا اللقاء الجليل أنني بحضرة عالم كبير
وأزال من نفسي كل المهابة والخسوف انطلقت معه في الحديث ثم تذكرت لقاءه
لي بعد أن أخرجت الكتاب وذهبت اليه لاهديه له في منزله وقد كان
وزيراً للاوقاف وكان معه جملة من الوزراء وبعض كبار رجال حزب
الاحرار الدستوريين فقام واستقبلني من على درجات السلم (السلامك) فأكبرته
في نفسي ايما اكبار وقدرت الموقف فتمجّلت الانصراف محاففة له على وقته .
وهكذا التاريخ يعيد نفسه . . رأيت نفسي في أيام شبابي أولنشائي
حينما محمت بحديث هذا الشاب الناشئ فكان هذا دافقاً قوياً لأن استجيب
له واصرح لحديثه وأعطيه من وقتي ما يشبع رغبته قرأ على الكثير مما
كتب ووجهته الى كذير مما يحتاج الى التوجيه وناقشته فيما يحتاج الى مناقشة

وهمت جامعاً على الايصم بما صدمت به من قبل وأن افتح أمامه أبواب الامل
والمتطلع والطموح ورحم الله عمر بن عبد العزيز حينما جاءه وفد ليعرض عليه
امراً ما فانتخبوا واحداً منهم هو أصغرهم فقال عمر بن عبد العزيز - هلا تحدث
من هو أسن منك فقال له المرأ بأصغريه قلبه ولسانه فكانت مثلاً .

تردد على الفتى الناشئ محمد عبد الظاهر مرات ومرات وفي كل مرة يقرأ على
شيئاً من كتابته ثم طلب مني أن اكتب له مقدمه لهذا الكتاب . فرجبت دون
تردد وأنا لا ادعى اننى قرأت الكتاب كله او بتعبير أدق انه قرأ على كل
فصول الكتاب ولكن الكتاب بين يدي القارىء يتحدث عن نفسه ويحكم
عليه القارىء بما يحكم وأنا لا يعينى إلا أن أقدم صاحب الكتاب . وأن آخذ
بيده ليسير قدماً نحو طموحه وتطلعه وإني آغنى له أن يكون قد وفق فيما كتب
وأمل تكون لكتابه أثر في توجيه الناشئة إلى إيمان كامل وعقيدة ثابتة وخاصة
بالنسبة لهذا الجيل المتطلع إلى البحث والدرس والقراءة في الموضوع :

صدق الله العظيم : (وفي الأرض آيات للمؤمنين وفي أنفسكم أفلا
تبصرون) فقد جمعت هاتين الآيتين من آيات الله المعجزات الكونية والنفسية
القاطمة بوجود الله وقدرته ولعل ما كتبه الشاب الناشئ يدور في فلك
هاتين الآيتين ،

دكتور

محمد سوسم مذكور

حدائق الزيتون في أول يناير ١٩٦٩

سفر النور إلى النور

مقدمة

بادىء ذى بدىء وبينا أقدم لقراءتنا الأجزاء كتابى الأول أود أن أكتب
الخطوط العريضة للحياة كما أراها :

فالحياة عقيدة ثم عمل .. والعقيدة هى أساس العمل وهى الدافع إليه ..
والعمل هو وسيلة العقيدة وأدائها والحياة على الأرض أيضا مكان ثم زمن ..
وللمكان خطره وأهميته وللزمن قيمته ووزنه .. فنحن فى حياتنا تتأثر بالمكان
و تؤثر فيه .. كما أن مسيرة الزمن تنهى وجودنا من هذا المكان وتنفى كل
أثرنا فيه .

وأعنى بذلك أن ثمة مسيرة زمنية معينة .. فى مكان ما تحوى
الانسان (الذى يؤثر فى ذلك المكان وذلك الزمان بأعماله التى يقوم بها)
إستناداً إلى عقائد معينة يؤمن بها ..

فإذا ما كانت عقيدة الانسان قوية وثابتة كانت بواحث أعماله أصيلة
وغير مصطنعة وكان الانسان إنساناً قوياً صلباً ... مؤثراً فى المكان الذى
فيه أيا كان ... مالكا لزمان الذى يدور به أو يجلس به من هوالم
الزوال والفناء إلى عالم الخلود والبقاء .

أما إذا كانت عقيدة الانسان ضعيفة يتخللها الوهن ... وتعدو عليها
عاديات الفناء فإن الانسان يعد فى نظرى ميتاً وهو حى ... ومهما كان أو تكون
مطامحه أو أهدافه أو مثله فى هذه الحياة .

ذلك أن دورة الزمن سلقى أثره ... كما سلقى كل آثاره ... ومستبقى
لنا أو علينا المعانى والقيم ولن تبقى سواها .

ومدركا ذلك كله . . . عدت إلى تقديم هذا الكتاب لآخوتي من بني
البشر . . . لأبين لهم طريقة من طرق التفكير العقلاني المتحرر من العاطفة
ومن الوم ومن الخرافة . . . التي من الجدل المقيم والسفسطة الكلامية الغير
مجدية . . . الباحث مجدية لا تعرف العبث وباهتمام لا يعرف الإهمال له
سبيلا . . . عن مستقبل الإنسان ومصيره الأبقى بعد هوالم الزوال والفتناء التي
يعيش فيها في دنياه .

راجياً المولى جل وعلا أن يهدي به قلوب حارت وضلت إلى نوره الأسمى
وإلى صراطه المستقيم والله حسبى فنعلم المولى ونعم الوكيل :
ومن ذلك أرجو أن أوضح لقرائنا الأعزاء دوافعي إلى تقديم هذا الكتاب
ومنهاجى فيه .

وحينما أتحدث عن الدافع فأننى أذكر بصدق ومراحة أننى لا أعرف على
وجه التحديد لحظة زمنية بدأت بعدها فى الاهتمام بالفكر المصيرى . . . كما أننى
لا أدرك على وجه الحسم واقعا إلى هذا الاهتمام أكثر من كونه اهتمام بما هو
جدير بالاهتمام من مصير الإنسانية الحقيقي . . . غير أن ما أدركه بوضوح ظواهر
معينه لهذا الاهتمام تبرز فى تلك المناقشات المستفيضة التي كانت بينى وبين أخى
الأكبر والذى يحمل نفس إسمى منذ أن كنت فى الصف الرابع من المرحلة
الابتدائية وكان هو وقتها يدرس كطالب فى كلية المعلمين لقد استمرت مناقشاتنا
تلك إلى أن انتهت بالمدارس الثانوية والتحق أخى الأكبر بقسم الدراسات
العلمية فى الفلسفة وعلم النفس . . . أيضا كانت هناك مناقشات فى نفس الوقت مع
أصدقائى والتي استمرت حتى وقت قريب . . . وكانت تعبر أو تظهر مبلغ اهتمامى
بالفلسفة المصيرية . . . كاهتمام عميق يشغل كل الفكر والجهد . . . وما زلت أذكر
تلك الليالى الساهرة وتلك الجلسات المحففة التي كنت أشغلها فى مناقشة جادة

المبحث الأول

دعوة إلى الفكر

نروى الأساطير أن جماعة يشكلون دولة أو شبه دولة كانت تكرم الحكام كراهة شديدة وتعتبرهم رمزا للأنانية وحب النفس . . . وكانوا لذلك يتركون الحاكم بحكم كما يشاء سنة واحدة وسواء عدل وأصلح أو ظلم وأرهمى فانهم بعدها يعزلونه من حكمه ويلقونه في غابة مليئة بالوحوش والموام حيث يكون هلاكه محققا .

وهكذا تماقت الأيام على هذه الجماعة ومع كل عام يمر تشهد الانسانية مصرع أحد حكامها بين برائن وحش مفترس وبدون مراحة أو شفقة . . . وبدون ماتغير في تلك المادة المعجبة عند هؤلاء القوم .

حتى جاء حاكم عاقل فطن فما أن تولى الحكم حتى نظر بين الاهتمام إلى تلك القنابة الموحشة فأشاع الأمن والسلام بين ربيعها حتى أضحت جنة خضراء مزهرة وحتى أضحت في غاية من الروعة والجمال وبعد عام ذهبوا به ليلاقى حتفه فاذا بهم في واقع الأمر قد ذهبوا به إلى جنة نعيم .

ويستوى هندي أن تكون هذه الرواية قد حدثت بالفعل أو انها من أطياف الخيال لكن الذي أعنيه منها ثلاثة أشياء . .

الأول : أن أولئك الذين لم يفكروا في مستقبلهم أو في أمنه وسلامه

كان الملاك لهم حتماً محتوماً تماماً كما تموت الطيور المستأنسة التي لا تفكر في
حد السكين إلا عندما يتقاطر به دمه وتنتهي به حياتها
الثاني : ذلك الذي أمن التفكير في مستقبله استطاع أن يحصل على الأمن
والسلام في حاضره ومستقبله .

الثالث وهو الأهم : أن هناك تشابهاً وثيقاً بين الإنسان في حياته وبين هذه
الأسطورة على غرابتها ، فنحن نعيش في تجمعات بشرية فوق سطح كوكب
الأرض المعلق في الفضاء والذي يدور بنا دورات منتظمة حول ذلك النجم
الجبار الذي يسمونه الشمس وهذا الكوكب السيار يجذبنا إليه . . ويدور بنا
حول نفسه . . ويدور بنا حول الشمس . . كل ذلك في الفضاء اللانهائي . .
وبدقة كاملة . . وبتوقيت لا يخطئ .

وعلينا نحن أن نفكر وأن نسأل أنفسنا . .

لماذا يجذبنا هذا الكوكب السيار إليه ألا أنه يشفق علينا أن نضيع
في هذا الفضاء اللانهائي ؟ . . أو أنه يريد بنا أن يحتفظ بمظهر هامر
وجميل ؟ ... ألا هذا ولا ذاك ولكن قوة جبارة أمرته بذلك فأطاع
راضياً أو كارها .

لماذا يدور بنا هذا الكوكب حول نفسه ؟ . . لأنه يريد للبشرية أن
تتقاسم الليل والنهار فيما بينها كتمه وذج للعمل ونبراس الأمانة .

لماذا يدور بنا هذا الكوكب حول الشمس . . ورجالات العلم تقول
لأن الشمس تجذب الأرض إليها
ولكن . .

هذه الشمس المضيفة لماذا تجذب كوكب الأرض إليها . . هل كان بينهما

علاقة عاطفية قديمة يحافظان عليها على مر الأيام دون أن ينفضها أى منهما أو يسلك ما سلوك غادر أو لثيم .

وعلى هذا الكوكب السيار نجد أنفسنا مغمورين في بحر جلى من الهواء ... نموت إذا ما ذهبنا عنه بعيداً فصدورنا تملأ وتنخفض مع كل دفعة منه تدخل حاملة عوامل الحياة ... أو تخرج وبين طياتها عوامل الموت والفتنة ... أليس علينا أن نسأل أنفسنا كيف استطاع هذا الكوكب الأرضي أن يحصل على هذا البحر العجيب من الهواء ... أكان في ذلك ما هراً أكان في ذلك داهية محتالة ... أم أنه أعطى ذلك من قوة عظمى دون ما مهارة لديه أو جهد مبذول . ومن حولنا نجد الأنهار الجارية ... التي منها تروى غلة الفلاحة وعليها نعيش وبدونها لا نكون لنا حياة ... ولقد تفكر كذلك هل أدرك كوكب الأرض بذكائه حاجتنا إلى الماء للسبيل نجرى به الأنهار ... وإلى بحار واسعة ومحيطات شاسعة ... أم أن ذلك كان بتدبير قوة عظمى نشكر لها هذا التدبير ونحمدها عليه .

كل هذه وتلك ظواهر كونية وطبيعية يجب ويلزم للضرورة التي لا تنفصلها ضرورة أن يفكر الإنسان فيها ويتدبر منها ما يعينه على إدراك حقيقة وجوده على هذه الحياة وبالتالي ما يعينه على سلوك السبيل الآمن الذي يحفظ له الأمن والسلام والرفاهية حاضراً ومستقبلاً .

ولقد تتجلى ضرورة التفكير في صورته الحية في أولئك الذين كان عليهم فرضاً وواجباً أن يتفهموا الطبيعة بكل ظروفها حتى ينفذوا بذلك أنفسهم من هلاك عاجل وسريع ... ولقد تتمثل ذلك الإنسان الأول الذي أحاطت به عوامل الموت كاملة وظاهرة ... تكمن في الجوع والبرد والقارس الزمهرير وتظهر نفسها في آكلات اللحوم من الوحوش المفترسة التي لا تتوانى عن تمزيقها

كلما و انتهت الفرصة إلى ذلك أوفى نوافثات السم من الزواحف والموام التي
تساجله بالمنية في ليل مظلم عبوس أوفى كهف كئيب .

ولم يقرر ذلك الانسان بالمثل أن يفكر ... بل هو قرر بالفريضة أن يفكر
وأن يحصل من نتائج فكره على سلوك آمن ... يبقى عليه حياته ويدبراً عنه
عوامل الملك .

وذلك ما يماثل تماماً الحركة العصبية اللاارادية التي تطلق عليها
« الفعل المنعكس » التي تحدث إذا ما لامس طرف من أطراف الجسم
الانسانى مادة ملتهبة أو جسمًا جاذبًا فانه سرعان ما يرتد عنها بعيداً ودون
ما تدخل من قواه العقلية ودون ما أمر منها .

وأعنى بذلك أن الفعل اللاارادى المنعكس تقوم به أطراف جسم الانسان
دون أن يقرر هو القيام به ... كذلك فان المواجهة السريية للاخطار المحدقة
بالانسان يقررها الانسان تلقائياً ... إذ أنه لايجد بداً من اقرارها إرضاءً
لغريزة حب البقاء التي قررها رجال العلم في النفس الانسانية واستطراداً من
هنا المقام ... يفكر الانسان في كل ما يجلب عليه مزيداً من الرضاية في
حاضره وفي كل ما يعطيه مزيداً من الامن في مستقبله المرئى ... أو
مستقبله البعيد .

ووصولاً عبر الزمن إلى جيلنا الحاضر فان ما ذكرناه آنفاً يتجلى في كل
ما يشيده الانسان من حضارة ... فهو مثلاً يقيم السدود على الأنهار ليحصل
على غذاء أوفر وعيش أرقى . وهو أيضاً يبادر إلى الدفاع عن نفسه أو تدعيم
سبل الدفاع عنها تأميناً لسلامته حاضراً ومستقبلاً ... وهنا أيضاً يكون
التفكير وتكون ضرورته الملحة ...

وهنا يجب أن يكون التفكير ممتلاً بغير حدود وبغير نهاية ومركّزاً على المستقبل الحقيقي الذى نعى به ذلك المستقبل الذى يبدأ بتلك النقطة الزمنية التى تنتهى عندها حياته .

وإذا كنا بصدد ذكر الظروف والملابسات التى تحيط بالإنسان فى حياته والتى توجب عليه التفكير فى مستقبله الحقيقى فأننا نجد أن هـلينا أن نذكر وأن نعى شيئين هامين :

الأول : أن الإنسان يعيش على سطح الكرة الأرضية ويوصف بصفات الأحياء من حركة ونمو وإدراك ، وإحساس ... فترة من الزمن قد تطول أو تقصر ثم بعدها تنتهى هذه الحياة بالنسبة له وتسلم منه صفات الأحياء ويصير فى عرفنا ميتاً لا يتحرك .. لا ينمو ... لا يحس ... لا يفكر ... ولا يدرك ... ومن الثابت حتى الآن أنه ليس هناك من البشر من استطاع أن يتجنب الموت أو يتعاشاه ... ولقد أدركت البشرية ذلك منذ القدم ... ونعى به شعراؤها وحكماؤها .

فقال أحدهم :

كان ابن أثى وإن طالت سلامته يوما على آفة حسبه محمول
وقال آخرون :

الأكل حى هلك وابن هلك وقو نسب فى المالكين مريق

الثانى : وإذا كانت حياة الإنسان على الأرض محدودة بزمن محدود .. فما أجدره بالتفكير فى مصيره ومستقبله بعد هذا الزمن المحدود .. إن

المستقبل الحقيقي^(١) للانسان لا يبدأ إلا بتلك النقطة الزمنية التي تنتهى عندها حياته . . . ومن ثم كان لزاما عليه أن يعتمد أول ما يعتمد في حياته إلى التفكير في هذا المستقبل تفكيراً جدياً وبدون عبث .

لقد استطاع الحاكم العاقل الفطن الذى أوردته الأسطورة القديمة التى صدرنا بها الكلام أن يحصل على الأمن والسلام فى حاضره ومستقبله حينما فكر فى مستقبله وأمعن التفكير وعلينا نحن إذا ما كنا نطلب الأمن والسلام للحاضر الذى نحياه والمستقبل الغامض الذى سنجد أنفسنا فيه أن نفكر وأن نعمل التفكير بجدية لا تعرف العبث وباهتمام لا يعرف الإهمال له سبيلا .

وإذا كنت قد ذكرت فى مواضع عديدة أن التفكير فى المستقبل الحقيقى يجب أن يكون تفكيراً جاداً وبدون عبث . . . فما ذلك إلا لأننى رأيت وسمعت الكثير عن رجال يفكرون فى مستقبلهم الحقيقى وكأنه أمر لا ينعينهم ولا يهمهم وهؤلاء لا يفكرون إنما هم يعيشون - ذلك أن التفكير فى المصير الإنسانى له مقوماته وله شرائطه التى سنتناولها تفصيلاً فيما بعد . . . (هذا فضلاً عن أولئك الذين لا يفكرون إطلاقاً) فى مستقبلهم الحقيقى ويسكنون مجرد التفكير فيه .

ولقد أجد لزاماً على أن أبدي رأياً فى أولئك الذين ينصرفون كلية عن التفكير فى مستقبلهم الحقيقى وحيث أن هؤلاء قد قدوا كل مقوماتهم

(١) السنوات القادمة فى حياة فرد ما - لا اعتبرها مستقبلاً وإنما هى حاضره متقدم ... أما المستقبل فأننى أقصره على حياة ما بعد الموت ... ذلك أن الانسان يقطع رحلة فى حياته نحو الموت وسواء كان مرفهاً أو معذباً فى هذه الرحلة فإن رحلته هذه تنتهى بشئ معلوم ثم تواجه الشئ الجدير بالاهتمام وهو الموت وما بعده .

الانسانية وأنهم قد أستهانوا بمقدراتهم وعذبوا بها ، وعلى الجملة فانهم قد ظلموا انفسهم ظلماً بيئناً .

ذلك أن الاممك في بحورها والطيور في أجوائها والوحوش في أوكارها ، والموام في أدغالها وأحراشها تمش وتنهض بمهام حياتها فتسعى للحصول على قوتها وتتناسل وتحافظ على نوعها عاماً كما يفعل الانسان وحينما نعلم نحن أن الانسان يفكر فأنها هي أيضاً تفكر ^(١) وبجديّة من أجل الحفاظ على حياتها أو الانتصار على أعدائها أو حتى من أجل المدوان أما حينما نقرر نحن أن الانسان يفكر في زمان ما بعد الموت فان ذلك يمد بمثابة التفريق بينها وبين الانسان أنها كما هو المعروف لا تفكر لا في حاضرها الذي تحياه فاذا ما تخلى انسان عن التفكير في شأن ما بعد الموت فانه يمد متنازلاً عن انسانيته بل ويجب الحاقه بأية فصيلة يختارها من فصائل الحيوان أو الطير فان شاء صار من الارانب وان شاء صار من الضفادع او من ضفث الطير . وإذا كان الاستاذ العقاد يقول في شعره

ليس أضنى لفؤادى	من عبوز تنصاى
ودميم يتحالى	وعليم يتفابى
وجبول يملأ الارض	سؤالا وجوابا

فاننى لا اجد أضنى لفؤادى من ذلك الانسان الذى تخرج عليه الشمس ثم لا تلبث ان تغيب ويحل به الليل بظلامه ونجومه ، وبعده النهار بنوره وضياؤه ، ويرى البرد ويسمع قصف الرعود ، وبين حين وحين يرى

(١) التفكير المقصود تفكير غريزى

و يسمع اثنين اخوته من بنى البشر الذين بلغت بهم مسيرة الزمان لحظة الزمان
المرجعة ، لحظات الموت ، لحظة بدا المستقبل الحقيقى ولقد يحمل اخاه على
كسفه ، ولقد يحنوا عليه التراب بيديه ، وهو يدرك ان مسيرة الزمن لا بد ان
تبلغ به لحظة النهاية لحياهه او لحظة البداية لمستقبله الحقيقى ، ثم لا يثير كل
ذلك فى نفسه تساؤلا حول مصيره بعد الموت ، او يدفعه إلى فكر جاد فى
مستقبله او من اين آتى وإلى اين يذهب .

انه حينئذ يكون اضنى الاشياء للفؤاد ، واكثرها اثارا للأسف والاستياء
أما ذلك الذى يعتز بإنسانيته ويرى لزما عليه ان يفكر فى مستقبله الحقيقى
فأنى اقول له : بان تفكيرك يجب ان يكون جاداً ومتحرراً من العاطفة
ومن الوهم

وحينما أقول بالجدية فى التفكير فأننى اعنى أن يكون التفكير موضوعيا
وليس القصد به الدخول فى دوامة جدلية مفرغة تنتهى بلاشئ أو تنتهى بمزيد
من الحيرة والبلبله ... أن مثل هذا التفكير الجدلى لا يفيد بقدر ما يحدث من
الضرر .. وبقدر ما يبدد طاقة الإنسان ويضاهف من شكوكه والآمه ..
إن الذى يربط نفسه ومصيره ومستقبله الحقيقى وقيمه ومقوماته بالجلل والفسطة
الكلامية .. يكون كظاىء يجرى خلف السراب ليرتوى .. والماء
يجرى حوله يمنة ويسارا .. يفكر .. وهذا شئ حسن ولكن بغير جدية وبغير
عناية وبغير اهتمام وبغير موضوعية .. تمام كأن ذلك المستقبل أمر لا يعنيه
ولا يوجب اهتماماً أو هناية منه

وحينما أقول بتحرير الفكر من العاطفة على شتى أنواعها ..
فأننى اذكر أن العاطفة ليست معياراً صادقا للحقيقة .. ولكى
يكون ذلك واضحا : اذكر أن كثيرا من البشر ممن يدينون بالحيانة

البوذية^(١) ، يحرقون أنفسهم أحياء ، من أجل بوذا الذى يعتبرونه إلها . ولا شك أن هذا العمل ، شحنة ضخمة من عاطفة الحب الولاء ، ولو كانت العاطفة مقياسا للحقائق لكانت هذه الفئة من الناس على حق مطلق ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كثيرا من البشر ممن يدينون بالليانات السماوية يحطم الواحد منهم رأس بوذا دون ما عاطفة أو انفعال ، ولو كان الأمر بالعاطفة لما استطاعت البشرية أن تجد لها طريقا واضحا صادق المعالم بين من يحطمون بوذا ، ومن يحرقون أنفسهم من أجل بوذا .

وإذا كان الأمر كذلك فإن على أخى الانسان الذى يحترم إنسانيته ويفكر فى مستقبله الحقيقى ، والذى يهتم بهذا التفكير ويعنى به ويجعله تفكيراً موضوعياً وليس سفسطة كلامية أو جدل عقيم ، عليه أن يحرر فكره تحريراً كاملاً من جرائم العاطفة على شتى أنواعها .

وحينما أقول بتحرير الفكر من الوهم والخرافة ، فأنى أعنى ذلك التعصب الأعمى الذى نهض كسمة سوداء من سمات عصرنا هذا ، ذلك أن الطفل ينشأ فى هذا الزمان ، وربما فى كل زمان على مبادئ محددة يلتفتها له أبويه .

وحينما يشب هذا الطفل عن الطوق ، ويصبح إنساناً ورجلاً فى هذه الحياة ، فإن ظلام التعصب الأعمى لتراث آبائه وأجداده غالباً ما يعنى هيبته ويصم أذنيه ، وغالباً ما ينسبه البحث الحر المستنير عن مصيره الحقيقى ، ولو كان التعصب لتراث الآباء والأجداد طريقاً إلى الحق ، لتهـمدت الطرق وتناقضت ولما وجدنا فى العالم حقاً ولا حقيقة وأود وأن أؤكد بقوة -

(١) العقيدة البوذية تنهض على أساس عبادة شخص حكيم يدعى بوذا وهى نوع من الوثنية منتشرة فى الهند وبورما وبلاد أخرى .

أن التعصب لتراث الآباء والأجداد بدون تفكير جاد حر مستنير ، متحرر من العاطفة ، هو في حقيقة الأمر إمتنان لانسانية الانسان ، وتضييع لمقدراته لا يدانيه في ذلك حتى ذلك الانسان الذي يختار علانية أن يترك الانسانية بأثرها ليلحق نفسه بفصيلة الضفادع أو الثعالب أو الكلاب ، وبرغم احترامى لماعطفة الأبناء نحو آبائهم بل وتقديرى لتلك العاطفة ، فأنى أكرر أنه ما لم يضع كل إنسان ينشد السلامة والأمن لمستقبله الحقيقى ، ما لم يضع الانسان في نفسه ، إنه من المحتمل أن يكون آباءه على باطل ، ما لم يضع ذلك في حسبانته فإن من العبث فهم المسئول أن يطلق على نفسه صفة الانسان ، فضلا عن صفة المفكر الجاد .

تلك هي مبادئ في التفكير ، وتلك هي التزاماتى فيه أوضحها وأبين حدودها بينما أوجه دعوة للتفكير إلى اخوتى من بنى الانسان لتفكر في مصيرنا وم مستقبلنا الحقيقى ، عسانا نحصل على أمن الحاضر وسلامة المستقبل فلنفكر معافى قضيتنا المصيرية الأولى فلنفكر مما في هذا السؤال الكبير الذى كان وما زال ولن يزال يلح على قلوب الناس وفي عقولهم :

هل هناك حقا إله عظيم أوجد الكون ومن فيه سيرجعنا بعد أن نموت وينسل المحسنين من الذين آمنوا جنته ، ويعذب الذين كفروا به في الحياة الدنيا ؛ وينخلهم النار ؟ فلنفكر معافى هذا السؤال الكبير ، وفي قيمته الكبيرة وما من شك في أن البشرية قد اختلفت كثيراً في الاجابة على هذا السؤال ، وما من شك في أن الناس قد ذهبوا فيه مذاهب شتى فهناك منهم من يقول : إن الله هو الذى أوجد العالم ومن فيه وهو الذى سيرجعنا بعد الموت أحياء ،

وهو الذى سيعاسبنا على اعمالنا إن خيراً فخيراً أو شراً فشرّاً ،، وهناك ايضا
من يقول اتنا آتينا إلى العالم صدقة ومنمضى من العالم كما اتينا صدقة وليس
هناك شىء اسمه الله ، كما ان الأديان كلها من اختراع البشر وأن الدين افيون
الشموب ، وقبل ان اذكر البراهين للعقلية القاطمة التى تثبت لكل عاقل
ومفكر ان الله موجود وحى اود ان نلقى معا بنظرة عابرة إلى الحياة التى نعيشها
وإلى الوجود الذى نعيش فيه .



المبحث الثاني

نظرة إلى الحياة

هيا إذاً نلقى نظرة طابرة على هذا العالم ، على هذه الكرة الأرضية التي مازالت حتى كتابة هذه السطور ، تدور وتدور ونحن معها ندور حول شمس قد توهجت وأشرفت وأضاءت ومن حولنا يشرق البدر وضاءاً جميلاً . وأود أن تكون نظرتنا الأولى إلى المعتقدات ، أو إلى الأيدولوجية المصيرية كما أسميها وكما أود أن يسميها الناس جميعاً ، ذلك أن كثيراً من الناس يأخذون الدين مأخذ الهزل ، ويمتبرونه عبارات تردد ، وطقوس تكرر وتعاد ، ثم لا شيء بعد ذلك . أما لو أخذ كل إنسان في اعتباره أن العقيدة أو الدين هو الشيء الذي سيتوقف عليه مصيره ، ومستقبله الحقيقي ، فإنه حينئذ سيفضل أن يموت ألف مرة ، قبل أن يخل بعتيدته التي آمن بها أو يعبث بأحكامها .

وإذا كانت هناك حكمة تقول (لا بد مما ليس منه بد) فأننى أيضاً أقول لا بد لذلك الذي يؤمن بوجود الله القوى القادر الذي خلقنا ويرجئنا إليه أيماناً حقيقياً معتقداً بحق أن مستقبله الحقيقي متوقف على سعيه لإرضاء الله ، لا بد له أن يبذل كل جهد ممكن للحصول على رضا الله ، وكل طاقة يملكها في تجنب غضبه أو سخطه .

ذلك لأنه يعتقد ويؤمن أن في التزامه بطاعه الله أمان لمستقبله الحقيقي ،

الذى يحرص كل الحرص على أمانه .. مستشراً في ذلك أنه إنما يرجو الخير
لنفسه قبل أى اعتبار آخر .

وإذا ما نظرنا إلى الأيديولوجية المصرية في عالمنا هذا فإن صورتين متناقضتين
تتراءيان لنا في غير مالبس أو غموض : الصورة الأولى صورة جموع بشرية
يؤمن كل فرد منهم أن ليس هناك إله خالق وأن الدين وسيلة الضعفاء وعزاؤهم
وأنه إنما أتى إلى العالم بالصدقة البهينة .. وأنه سيعيش فيه بقدر ما يستطيع .
فاذا أنتصرت عليه عوامل الفناء فإنه سيموت .. تماماً كما تتوقف الآلة عن
العمل حينما تنصهر عليها عوامل التعرية .

وإذا كانت الصورة تبدو أكثر وضوحاً بعد إضافة بعض التوش
فأنى أذكر :

- في المقام الأول : هناك وبالعجب إناس في العالم مايزالون يربطون
أيديولوجيتهم المصرية بالاصنام والاثان ويعتقدون أنها هى التى خلقتهم وإليها
سيرجعون ، وهؤلاء لن اتعرض لهم في كتابي هذا ، أنهم أحقر شأن من
أن يضمهم كتابي بين دفتيه .

غير أننى اكتفى بالقول بأن هذه الوثنية قد لطخت جبين الانسانية
بالمار زماناً طويلاً . إذ أن العقل لا يقبل عل الاطلاق أن يعبد الخى ميتاً
أو يعبد الانسان حجراً .. كما أن التلب والوجدان والضمير الانسانى ، وكل
ما يرجع إليه الانسان فى سلوكه من قيم أو مثل عليا ، لا يمكن أن ترضى من
الانسان وهو يحى هيامته لجبر أجسم مستقيداً أنه بذلك يكون آمناً في
ما يحيط به ومستقبلاً

وهناك من الناس يعبد الشجر أو يعبد الأنهار الجارية أو يعبد الأنيران والبقر أو يعبد الشمس والقمر ، وكل ذلك ضروب من الوثنية لأجد الحديث عنها إلا ضرباً من الجدل المقيم ، بعد أن أدرك الإنسان بقله أن مصيره ومستقبله الحقيقي شيء آمن من أن يضعه راضياً مختاراً . ومهما كانت ومهما تكون الأسباب والمبررات .

- في المقام الثاني اذكر أن أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله يتجهزون فيما بينهم إلى ثلاثة مذاهب .

أولاً : المذهب الشيوعي ويتركز بوضوح في جمهوريات الاتحاد السوفيتي وفي معسكر الدول الشيوعية كما أن هذا المذهب الشيوعي ينتشر بدرجات مختلفة في كثير من دول العالم ، ولن أتحدث عن الشيوعية كنظام اقتصادي فإن ذلك متروك في تقديرى لرجال المال والاقتصاد لكننى سأتناول الشيوعية في كتابي هذا من وجهها الديني كنظام يقوم على اللادين وعلى الكفر بوجود الله وعلى اعتبار أن الدين أفيون الشعوب .

وأود أن أبين للإنسانية جمعاء أن هذا كله محض اقتراء وتضليل وأن أولئك الذين دفعهم السخط على المجتمع الرأسمالي إلى الكفر بالاديان وإلى الكفر بوجود الله قد أسرفوا على أنفسهم وعيشوا بمقدراتهم وبمستقبلهم الحقيقي من أجل الحاضر وسعادة الحاضر فتقدوا بذلك الأمن الحقيقي للحاضر والمستقبل .

وأود أن أقول تذكراً أن حياتنا على الأرض حاضرة أو حاضر متقدم نسميه نحن جوازاً بالمستقبل ، أما مستقبلنا الحقيقي الذى يجب أن نحصر كل الحرص عليه فهو المصير بعد الموت ، ذلك المصير الذى يجب أن نفكر ونعني الفكر في أمنه وسلامته ،

أما بالنسبة لأولئك الذين يقولون بانتهاء الحياة بالموت وأن الموت نهاية لكل أنواع الحياة وأنه ليس هناك أى نوع من أنواع الحياة بعد الموت ، فأننى أطلب منهم أن يكون التفكير فى مصير ما بعد الموت تفكيراً أكثر جدية ، إذ أن المصير شئ يعبر عن كينونة الانسان فى زمن ، ولا يفترض مقدماً كونه حياً أو ميتاً ولكنه يبحث فى هذه الكينونة ويقررها ، ثم يبحث فى الوسيلة الأحسن لمواجهتها .

ثانياً : المذهب الوجودى الملحد وهو قليل الانتشار فى هذا العالم ولكنه شديد الخطر عليه إنه وبدون مبالغة أخطر على العالم من الدباب ، وأشد فتكاً بالفكر العالمى المستنير من الطاعون .

ولقد حاولت مرة ومرات أن افهم شيئاً عن الايديولوجية المصيرية لهؤلاء القوم ، وخصوصاً أنهم اتخذوا لهم عاصمة هى باريس ، وملكاً هرجان بول سارتر ، وملكة هى سيمون دى بوفوار .

وقرأت كثيراً عن الملك والمملكة كما قرأت لهما كثيراً ، وكل ما خرجت به من قراءاتى أن المملكة وكذلك الملك ورعيته لا يؤمنون بوجود الله ، ومع ذلك وبرغمه يؤمنون بالقيم وبالمثل الانسانية .

ولقد لاحظت فى عقيدتهم شيئاً عجيباً ، ذلك بأنهم يؤمنون بأن الانسان مسئول عن نفسه فحسب أمام ضميره مسئولية مطلقة ، ولقد يعجبك هذا الكلام ، ولكن ، لآى غاية يسعى الانسان ، وأى شئ يمكن أن يكون هدفه ، هناك لا تسمع منهم إلا كلمات جافة جوفاء لا تحمل معنى ..

كما أن آثار الحيرة والاضطراب تبدو واضحة فى كل كلمة تلتقى بها أفواههم

وقصارى ما يفخرون به أنهم يفتشون الكمال ، وأنهم لا يرضون عن أنفسهم ، وأن قوموطا من السمك المتوحش يطاردون على الدوام فى نومهم وفى يقظتهم .

ولا أريد أن أطيل فى وصف هذا المذهب ولا فى وصف القاسمين عليه ولكننى أرجو ألا تنخدع البشرية بالسراب وبالزيف وبالألوان البراقة الذى يثيرها المضللون والمزيّفون حول المثل والقيم والخط المثالى السلوكى ، فان اتباع الخط المثالى السلوكى فى الأخلاق الانسانية شئ ، والبحث عن المستقبل الحقيقى للانسان شئ آخر والخلط بينهما جريمة كبرى فى حق الانسان وفى حق مصيره ومستقبله الحقيقى . ولقد يبلغ بنا الانفعال ذروة الغضب حينما نتذكر كل هذا العبث بالقيم الانسانية ، وكل هذه المغالطات لفكر الانسانى ، كأنما يريد أولئك العابثون أن يطفئوا نور الحق فى العالم ويوقدوا مكانه للباطل نارا ونيرانا وكأنما يريدون أن يضعوا أمام كل حين منظارا أسودا يحجب عن العيون نور الحقيقة ويظهر لها أشباح الباطل .

ولقد أحاول بكل جهد أملكه وبكل طاقة أستطيع بذلها أن أظهر لآخوتى من بنى البشر أن لكل منهم فى هذه الحياة ، وفوق كوكب الأرض للسيار خمسة إيديولوجيات ^(١) ، تؤثر كل منها فى الأخرى وتتأثر بها لكنه يجب أن ينظر إلى كل منها على حدة وبدون إهمال .

أولا : الأيديولوجية المصيرية : وهى التى يبعث الانسان بموجبها عن مستقبله ويفكر فيه وهى التى تميز الانسان كما أسلفنا عن الأرانب والتعالب والفئران وبنات آوى .

(١) الأيديولوجية كلمة مركبة من مقطعين ايديا ، يولوجى ومعناها علم ، فكرة وأقصد بها الخط التفكيرى العام أو أساس التفكير .

ثانيا : الايديولوجية الملوية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى اكتساب العلم والمعرفة عن كل ما يحيط به ، وكذلك إلى محاولة الابتكار والاختراع في أى مجال وبأى وسيلة .

ثالثا : الايديولوجية الصحية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى الحفاظ على حياته على الأرض إلى أبعد زمن ممكن ، أهني تلك الايديولوجية التي بموجبها يحاول أن يتولى بليانه إلى أقصى حد ممكن وأن يحنّب نفسه إلى أسباب الفناء بكل ما يستطيع .

رابعا : الايديولوجية الاقتصادية : وهي التي يحاول الانسان بموجبها أن يحسن مستوى معيشته وأحواله المادية بكل جهد ممكن وبأوسائل التي يراها شريفة وملائمة .

خامسا : الايديولوجية العاطفية : وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : العاطفة الأخلاقية . وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى التزام خط مثالي ، أخلاقيا أو إلى التمسك بقيم أخلاقية معينة كالكرم ، والحلم والعفو عند المقدرة وهلم جرا .

القسم الثاني : العاطفة الاجتماعية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى تكوين وبناء علاقات اجتماعية سليمة ، وإلى تأسيس وتكوين رابطة مناسبة بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه .

القسم الثالث : العاطفة الجنسية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى إشباع حاجاته الجنسية بالوسيلة التي يراها مناسبة .

وهذه الأيديولوجيات الخمس مترابطة ومتصلة ببعضها اتصالا شديدا بحيث لا يمكن بأى حال أن تفصل إحداها عن الأخرى . فغير أنها في

اتصالها تبقى متميزة واضحة المعالم ، ولكن ما أريده أن يكون واضحا للبشرية جمعاء .

أن المنهج الشيوعي يخلط بين الايديولوجية الاقتصادية وبين الايديولوجية المصيرية بصورة خادعة ومثيرة ، أنهم يستغلون كل ما في النفس البشرية من حب للتغير ، وكل ما في نفس الانسان من عوامل السخط والتبرم ، ثم بعدما يزعمون أن الدين هو الذي يعوق وصول الانسان إلى أهدافه وأمانه ، أنهم يستغلون حب الفقير للمال ثم يعلنون له أن الدين هو الذي جعله يصمت ولا يطالب لنفسه بحياة الأغنياء المترفين ثم هم يستغلون ما في النفس البشرية من أحقاد وأطماع ، ويستثيرون شهوة القتل في نفس الانسان ، فيندفع متعطشا إلى الدماء ؟ الحمراء ، ثم ما يلبث أن يعود من مشهد الدماء المراقبة وقد رفع أفقه ، وأحمرت عيناه فلا يرى ولا يسمع إلا مرأى المادة وصوت رنينها ، ويعيش كما تعيش الآلة على حد زعمه ويهوت أيضا مثلها تبلى :

ولقد آليت على نفسي ألا أقحم هذا الكتاب في الجانب الاقتصادي الشيوعية فذلك ما يستطيع رجال الاقتصاد أن يناقشوه بموضوعية ، ولكن على الانسانيه جمعاء أن تدرك أن الشيوعية حتى ولو كانت تحقق لهم سعادة الحاضر فانها لا تحقق أمن المستقبل الحقيقي ، وأنه لا يمكن ، بحال من الأحوال أن نبذل أمن المستقبل ونستمرى بها سعادة الحاضر ولكن العكس هو الصحيح وهو أن من الممكن أن نبذل سعادة الحاضر في سبيل أمن المستقبل والشئ الأمثل هو أن نحافظ عليها معا . على سعادة الحاضر وأمن المستقبل .

ولقد كانت الشيوعية وما تزال راية للباطل تحقق على ربوع الأرض ووباء خطيرا راح يهدد البشرية بسرطان قاتل ومميت .

كذلك فإن المذهب الوجودي الملحد يخالط بين الأيدولوجية المصيرية وبين الأيدولوجية العاطفية خلطاً يثير الحيرة والشك والقلق ويبدد الطاقات الانسانية في هير ما قصد جاد لتحقيق الحقيقة أو ادراكها .

ونكرر هنا لتأكيد ما ذكرناه آنفاً من أن الانسان يجب أن يرفض بحسب فكرة «الفكرة السائدة» أو الأيدولوجية الواحد» ، أو ما أطلق عليه وحدانية النظر ، بمعنى أن أى ايدولوجية اقتصادية كانت أو عاطفية معينة يجب ألا تصدر كل الخطوط الفكرية الأساسية للانسان ، مدعية بغير مبرر أن هذه الأيدولوجية هي الأم في الحياة ، وهي التي تستحق في رأيهم احتكار الفكر الانساني ، وبذلك نجد لزاماً على الانسان ان يفكر في كل ايدولوجية في حياته تفكيراً جاداً ، والا يلغىها أو يقلل منها بدافع الاهتمام بايدولوجية أخرى في هذه الحياة .

ثالثاً : المذهب اللامنطقي الملحد : وهو يجمع أشتاتاً من البشر تتجسد منهم بلية العالم كله أو يتجسد في أشخاصهم اللامعقول في كل العالم الحى ذلك أنهم لا يعتمدون على منطق أو حجة أو برهان بقدر ما يعتمدون على العناد والججاج والمراوغة ، وإذا ما حاولنا أن ننبه أحدهم إلى أنه إنما يبحث بمستقبله الحقيقي أسرع يقيم التحصينات والخطوط الدفاعية وأخذ يصكر ويفر ويردد الجمل والعبارات ، بطريقة تثير السخرية والأسف والامسى والغضب معا .

وهؤلاء لن أتعرض لهم في كتابي هذا ، فهم قريبى الشبه بالوثنيين إلى حد بعيد ويكفى أن أعرض نماذج لهم في مقامى هذا .

النموذج الأول : المذهب اللامنطقي الكسول وهؤلاء أناس شعارم

أنا لا أؤمن بشيء إلا إذا رأيته بعيني وما دمت لم أر الله بعيني فأنى لن أعبده وإذا قلت ألا يكفي أن تراه بعين العقل وبعين القلب يقول لك لا ومهما أتيته من بعد ذلك من حديث فانه لن يتغير رغم أننا نؤمن في هذه الحياة بوجود ما نلسم أثره .

النموذج الثانى : المذهب اللامنطقى العلمى الملحد وهؤلاء يتمسكون بالعلم ويزعمون أنه يتعارض مع وجود الله ويمس آتهم يؤمنون بالعلم إذن فهم يكفرون بوجود الله . وقضية تعارض العلم مع وجود الله قضية مقطعة سأتعرض لها بالتفصيل فيما بعد أما قضية ادعاء العلم فى قضية غير منطقية يبدو فيها الخلط واضحا بين الايديولوجية العلمية وبين الايديولوجية المصيرية .

النموذج الثالث : المذهب اللامنطقى المقلد = وهؤلاء أناس فتنوا برجال ملحدين وأعجبوا بهم ، فراحوا يقلدونهم تقليدا أعمى دون ما منطق أو فكر . تماما كما يقلد البيغاء أصوات من حوله .

أما الصورة الثانية : فهى صورة تلك الجحوش البشرية المؤمنة التى تؤمن بوجود الله الواحد الأحد وترجو رضاه وتمتد أنه هو الذى خلقها ، وهو الذى سيجمعهم ويمحاسهم على أعمالهم .

ولقد ترى الرجل منهم يخبر بين الكفر بالله وبين أن يلقي لأسد جائع أو وحش مفترس ، فلا يرتد عن الايمان قيد أنملة ويستطيع كل إنسان أن يتصفح التاريخ ليطالع فيه نماذج أو أمثلة لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم وأنفسهم من أجل كلمة التوحيد والايان وماتوا وهم يرددونها رغم إنشالنا نعلم أننا يفوق الم الموت أو يدانيه .

وإن الانسان مهما وصف وأطال الوصف فلن يستطيع أن يصف ذلك المؤمن الذى صلبه الكفار ، ووقف فريق منهم بالنبال لينهلوا بها عليه ، وهو

يعلم تماما أن كلمة من فم بنيد إيمانه تنجيه من الموت . ولكنه يأبى ذلك قائلا :

ولست أبالي حين أقتل مؤمنا ... على أى جنب كان فى الله مصرى وقصارى ما أستطيع قوله فى المؤمن هو أن عقله قد أدرك أن مستقبله الحقيقى أهم من الحياة الدنيا التى سيفادها إن آجلا أو عاجلا . مهما طال الزمن ومهما تملكأت مسيرة الأيام .

بعد هذه النظرة العابرة إلى جانب المعتقدات أو إلى جانب الايديولوجية المصرية فى كوكبنا السيار . أندكر وأذكر أننى كنت أركب القطار ومسافرا من بلدى ومرتحلا فى سبيل اكتساب مزيد من العلم والمعرفة .. وبينما كنت أسرح بعصرى تناملا فى الأرض من حولى وقد تدرت يداها الأخضر الجليل ويزيده جمالا ورونقا وحسنا وبهاءا طيور صغيرة راحت تحلن فوقه .. وترنم فكانما تصف ما تراه عينها من الجمال والروعة .. بينما كنت كذلك شق مممى أصوات استغاثة وهويل وإذ بالتيران تشب لسبب لا أعرفه فى إحدى عربات القطار . وبالرغم من أن التيران قد أخذت ديزن ما ضرر .. إلا أن سؤالاً راح يلح على عقلى .. أليس من المحتمل ... أن تشب التيران مرة أخرى ... وتلتهمنا جميعا وتنتهى حياتى على أعنف ما يمكن أن أنجبل . ثم .. أليس من المحتمل أن ينقلب بنا القطار ... ونموت ونختفى من هذه الحياة ومن كل ضجيجها .

ووقر فى نفسى أن الحياة هينة ورخيصة وليست بذات قيمة ... وسريعا ما ابتلع هدوء الجو وشاعريته هذا السؤال وثابتت نفسى إلى الهدوء والسعادة .. ليسكن . مسيرة الأيام ما لبثت أن أثابت هذا السؤال فى نفسى مرة أخرى .

وكانت في هذه المرة عنيفة كأقصى ما يكون العنف وبشكل يصعب على الخيال أن يحتويه ... وإليك ما حدث .

كان الوقت ليلاً ... والليل في قريتي هادئ وجميل ... ولكن هدوء الليل تمزق ... فقد دوت في الجو ثلاث طلقات نارية ... اخترقت صدر رجل ما كان يدور في خلده أنه سيموت عما قريب ورأيته وهو ملقى على الأرض صريعاً ... كانت عيناه جاحظتان ومائلتان إلى أسفل ... وكان بريقهما قد انطلقاً ... وكان لعابه قد سال وهو يتألم صكرات الموت حتى رسم خطأ على ذقنه ... وإيا له من خطأ .

ورنوت يبصرى إلى السماء فراغى مرآها ... وعاد للسؤال المرعب يلح مرة أخرى : هل الحياة هينة ورخيصة وليست لها قيمة .. وأجبت نفسى حينئذ في قوة : نعم أنها أحقر وأتفه من جناح بعوضة وصاحت نفسى حينئذ هل كل من في العالم يدركون ذلك ... وكان أن أبلغ مني اليأس مداه ... وصحمت وصاحت بي دموعى من الأسى ورويدك نفسى لا تفنى مضاجعى .

وفي العام الماضى كنت أدرس تشرح الضفدعة في المرحلة الاعدادية بكلية الطب حينما حل إلى أحد الأصدقاء ضفدعة حية ورجانى أن أشرحها أمامه وبدون نخدر ... وأمسكت بالضفدعة المسكينة ... كانت ترتعد في يدي خوفاً وقرصاً ... كانت تنظر إلى نظرة توسل واستعطاف ورأيت نفسى أقول لها : يا ضفدعتى العزيزة ... لا تبكى ... ولا تحزننى على الحياة ... فان نحتوى منها خيراً ... واهلى أن الموت نهاية كل حياة ... فلتندهي وإنا بك لاحترق وفي مطلع هذا العام كنت أدخل المشرحة مع زملائي

حيث ظالمنا الجثث الأدمية بمنظور يثير كل ما في الوجدان الانساني من إحساسات الأسى والحزن فها هو الانسان الذي كان في حياته يضحك ويمرح ويشمخ ويشمخر بأنفه فد أضحي جيفة متعفة ، وهذا هو الانسان الذي هو أنا ، والذي هو أنت ، والذي كثيراً ما يقف أمام آراءه ، معجباً ببريق عينيه وبشكله الانساني البديع ، وقد أضحي الناظر إليه يملأ تفرزاً ، ويحس بالنصبة تقف في حلقة وبالحزن والاسى يملك عليه مشاعره .

ويعود السؤال الحائر أماننا إلى الظهور مرة أخرى ، وهو هل تدرك البشرية إن حياتها على الأرض حقيرة وقائمة في حد ذاتها وإذا كانت البشرية تدرك ذلك فهل شمتت سعيها وجدت في السعي من أجل مستقبل أمن ومستقر وذو قيمة يعوضها عن تفاهة الحاضر وآلامه ومصاعبه .

إن النظرة التي ألقيناها على الجانب العقائدي من حياة الانسان على الأرض تحوى إجابة مفصلة على سؤالنا هذا .

وأود أن تكون نظرنا الثانية إلى النفس البشرية وما ينازها من عوامل الخير والشر .

وهل للايمان بالله واليوم الآخر قيمة إيمانية في نهضة النفس البشرية وفي دفعها نحو فعل الخير وأبادةها عن الافعل الشريرة ، وهناك سؤال تقليدي يردده أولئك الذين يهتمون بتأديب الناس على أموالم وأرواحهم هو : ما هو الرادع الطبيعي عن فعل الشر .

ولقد يكون الرد التقليدي على هذا السؤال : العقاب والثوبة فتعاقب من يفعل الشر ، ومكافأة من يفعل الخير هو خير رادع عن فعل الشر وخير دافع إلى فعل الخير ، ولله أجند رجال القانون في كل دولة يضعون العقوبات

المتخافة التي تردع الناس عن الشر ، ومن ثم يأمن الناس على أموالهم وأنفسهم غير أن هناك شيء غاية في الأهمية هو أن القوانين بكل ما تحويه من دوافع ومرغبات أشياء خارجية تشمل ظواهر الاحوال ومظاهر فقط ، إذ قد يحكم المتفنون للقانون على البريء بالعقاب ، وقد يحكم للذنب بالبراءة ، وفي واقع الامر ما انفكت المصائب الشريرة تهرب من القانون وتتحايل عليه حتى لقد أصبحت الانسانية تدرك جيدا أنه لا بد للانسان من دافع داخلي يلجأ به من ذاته ويدفعه عن فعل الشر إلى فعل الخير .

(وقد يقول قائل : وهل هناك في النفس البشرية ميل غريزي إلى فعل الشر) :

وجوابنا على ذلك أن الميل العدوانية في الانسان قد تتكون وتنمو نتيجة لتكرار الخبرة المؤلمة عند ذلك الانسان ، وقد تتحول إلى عقدة العدوان ضد مجتمعه الذي يعيش فيه أو ضد المجتمع الانساني بأسره ، ويتعين تبما لذلك أن يكون في المجتمع الانساني من الدوافع والمرغبات ما يحمي به نفسه من المخاوف من أفرادها وأيضا أن يكون في كل نفس بشرية ما يمكن ان نسميه بالخطوط الدفاعية ضد دواعي انحرافها إلى العدوان .

وفي ما أسلفنا من القول تتجلى حاجة الانسان كفرد إلى الايمان بالله سبحانه وتعالى ، إذ انه بذلك يستطيع ان يحطم دواعي الانحراف في ذاته باطمئنان إلى المستقبل على امتداده وتمسكه بكل حقوقه المشروعة في حاضره ، وباستهانتة بالقيم الزائلة للحياة واستعدادة الدائم للتضحية بها إذا ما كان في ذلك ما ينقذ الانسانية بأسرها من اخطار محدقة ، وفي ذلك نفسه تتجلى حاجة المجتمع ككل إلى الايمان المطهرين بالله والحرص على اتباع رسالة السماء .

وإذا فهناك الدليل القاطع على ان الميل الغريزي إلى فعل الشر موجود في فطرة الانسان ، وعلى ان الانسانية في سبيل الحاجة إلى رادع عن الشر

ودافع إلى الخير ينبع من ذاتية الانسان . ويتجاوب مع تلك الروادع والمغبات التي تضعها القوانين وتنظمها .

ومن الحقائق البسيطة التي لا تحتاج إلى كثير من الجدل اعتقاد الانسان في وجود حياة أخرى سيعاسب فيها على عمله وعلى بواعث أعماله ومقاصده منها أمام الله سبحانه وتعالى هو خير رادع عن الشر وخير مرغّب في الخير . ومن ثم كانت حاجة البشرية ماسة وشديدة في الايمان بوجود الله سبحانه وتعالى ومن ثم كان الحرص على ذلك الايمان ضرورة يدعو إليها كل حريص على البشرية مهم بآمنها وسلامها فيور على مستقبلها الحقيقي وإذا ما ذكرنا الدوافع إلى الخير وإلى الأعمال النبيلة فإني أذكر أيضاً أن الايمان بالله واليوم الآخر أصل لكل فضيلة ولكل عمل خير .

وذلك الرجل المؤمن الذي يعلم تماماً في قلبه أن حياته لا تمثّل إلا حاضراً أو حاضراً متقدماً ، وأن مستقبله الحقيقي هو بحسب ما يقدم من عمل خيره لا شك أنه سيندفع في طريق الخير لا يلوى على شيء .

ذلك أن الايمان بالله واليوم الآخر يستلزم أن يعتبر الانسان نفسه على هذه الحياة ... تماماً كذلك الذي يجلس في لجنة امتحان ... والممتحن هو الله سبحانه وتعالى . ومادة الامتحان هي كل قدرات الانسان ... وكيفية تصرفه فيها طبقاً للصالح الانساني أو ضد مصالحه وأهدافه ..

ومن ثم فليس غريباً أن يصكرس ذلك الذي يؤمن بالله كل ما يستطيع لنفع المجتمع الانساني . وليس غريباً أن يضحي بحياته في سبيل محو الشر والأشرار من ذلك المجتمع . . . وفي سبيل صون ذلك المجتمع وحمايته من كل ما ضرر يتهدهده ولكن القريب حقاً والذي بلغ من الغرابة أقصاها هو أن يضحي

إنسان بحياته وهو يعلم أن لا حياة له سواها . . . إذن أن مما يعتبره الانسان
بديهية أن للكل أكبر من جزئه فمثلا عدد طلبة جامعة أسيوط يزيد عن عدد
طلبة كلية الطب بجامعة أسيوط . . . وإذا كان الامر كذلك فأننى أستطيع أن
اقترض أن ذلك الانسان الذى يعتقد أن له حياة واحدة وأنه لا حياة لها له سواها
لن تكون غايته من حياته إلا أن يعيشها بكل دقيقة فيها وفى سعادة واسعة
وهنا فإذا ما حصل على تلك السعادة فإنه لن يضحي بحياته من أجل مزيد
منها أو من أجل مبدأ نبيل وإلا فإنه يكون مضحياً بالكل من أجل الجزء . . .
وهذا ما لا يستقيم مع طبائع الاموز .

وأود أن أذكر أن طبائع الامور تدرك في الانسان حبه لنفسه وسعيه الدائم
المستمر نحو كل ما يقدم له نفعاً . . . أو يدفع عنه ضرراً ومن ثم قال اقدى يستقيم
مع طبائع الامور أن يحافظ الانسان على حياته ويستमित فى المحافظة عليها ، وإذا
ما كان الانسان يؤمن أنه لا حياة إلا حياته الدنيا وأنه يعيش إلى أقصى وقت
ممکن ثم تنتهى حياته وصكأنه شئ لم يكن . . . فإنه يكون سعيداً حين
يشمى كل ما حوله من طير وإنسان وحيوان . . . فى سبيل أن يعيش ويعيش
إلى ما لا نهاية . . . ولقد أعرف كثير من الناس يود أن يسهر إلى أهدافه ولو
على جثث أقرب الناس إليه وأهزم لديه أليس مما يستقيم مع طبائع الامور
أن يود الملحد لو سار إلى أملة فى ألا يموت ولو على جثث الناس جيناً ولقد
أسأل الملحد عن وجود الله فينكر أمأى وبدون ما حياء أو خجل وجود الله
القوى القادر . . . وأسأله حينئذ عن وجود الحياة الأخرى وينكرها أمأى
ويعلم بكل ما أوتى من قوة أن الموت نهاية الحياة ولا حياة بعد الموت . . .
وإننا تماماً مثل ما كينه من الحديد نعمل حتى تبلى . . . وحينئذ أسأله قائلاً :

وإذا فلائى هدف تمش على هذه الحياة أو ماذا تريد من الحياة وأنت تعلم أن الم الموت ومرارته تجب وتمحى كل لفة كانت قبلها بل كل ماشعور بالسعادة والسرور عاشه الانسان فى حياته ... وأنت تعلم ان كل لحاظ سرورك سيكون ختام لما الموت بمرارته الى تداينها مرارة .

وهناك ايضا الخوف والترقب والقلق من المجهول فى حياتك الدنيا فيها هى الارض تدور حول الشمس كمحصول لقوتين قوة جذب الشمس للارض وقوة الطرد المركزية ... فمن يدريك ياخى فقد تريد احدى القوتين على الاخرى او تزول احدهما من الوجود ... ولقد يردد العلماء بين الفينة والفينة ان الارض ستلتصق بالشمس فى يوم ما وستزول الحياة ... ولذلك فلايمان بالله ضرورة من ضرورات حياتنا نطلبها ونسمى ونجد فى طلبها .. بكل ما نملك من قوة .

حتى نعطى بالحياة السعيدة المطمئنة والمستقبل الأمن المشرق . وإذا فلايمان بالله سبحانه وتعالى خير رادع للانسان عن فعل الشر وخير دافع له الى فعل الخير .. والايمان بالله جل وعلا هو من احسن الدعائم التى يمكن ان يقوم عليها امن الناس على اموالهم وانفسهم وكذلك فهو ضرورى للانسان حتى تتمحى من حياته عوامل الخوف والترقب والقلق من المجهول .

ويحل بدلا منها امن وامل يحققان للانسانية امز وافلى ماتطمح اليه . كل ذلك يبين قيمة الايمان فى الحياة ... وما دام انسان يطلب هذا الايمان - كضرورة من ضرورات حياته وامن حاضره فان من واجبه ان يبحث عنه بعقله .

وأنى لى ثقة ان من يبذل الفكر مخلصا .. فى سبيل البحث عن الايمان
بالله واليوم الاخر ... سيجمده قريبا وبدون عناء .

والآن ساذكر لكم البراهين العقلية القاطعة التى تدل على وجود الله
الواحد الاحد ... حتى تقرب ذلك عيون وتطمئن قلوب وحتى تزول
غيوم الباطل عن قمم الحقيقة فيعود لها بهاؤها وروعتها ويمود للعالم
امنه وسلامه .



المبحث الثالث

الوجود كدليل عقلي قاطع على وجود الله

الوجود ، وأعني به كل ما هو موجود في هذه الحياة وفي هذا الكون اللانهائي ، من شمس وقر ونجوم وكواكب ، ومن أنهار وأشجار وبحار ، ومن مواد غازية وسائلة وصلبة ومن ممالك حيوانية ونباتية .

فهذا الالكترون الحائر الذي يدور حول ذرة أو ينتقل إلى ذرة أخرى ليربطها بذرتة ، إنه مادة ، أو هو وحدة المسادة التي تكون الوجود والذي نعنيه ونقصده .

وهذه الذرة من ذرات الكسوجين التي تنقل في دمي ودمك وتمنحني وتمنحك الحياة هو أيضاً مادة ، وهي أيضاً من الوجود ، وهذه القطرة من الماء التي تتحرك في قاع محيط أو على عمق قليل منه أو في عنان الجو هي من المادة وهي من الوجود الذي نتحدث عنه وقطرة الدموع الحائرة التي تنزل من عين طاشق ولهان متدحرجة على خده مادة . . . وهي أيضاً من مكونات الوجود .

وهذا المصفور المفرد الحلي الذي يطير منتقلا من غصن إلى غصن ، مادة ، وهو من الوجود الذي أعنيه .

وعلى الجملة فأنني أعني بذلك الوجود كله بكل مكوناته وبكل صفاته وبكل مواده وطاقاته ، وبعد أن تأملنا هذا الوجود بكل مكوناته والتي قد تبلغ من الضخامة حداً لا يمكن تخيله ، أو قد تبلغ من الضآلة والصغر حداً بعيداً وساحقاً ، أليس من المعقول أن نطرح على بساط هذا السؤال :
من أوجد كل هذا الوجود ؟

ومن أوجد كل هذه الموجودات ؟ ...

وفي رأي أن هذا السؤال مقول جداً ... بل إنه سؤال يفرضه علينا إنسانيتنا واعتزازنا بهمة الانسانية وأن إهمال هذا السؤال وتغافله هو من الاتهام يمكن ... بالمقل البشرى وبالقدرات الانسانية .

وإذا كان ماركس مؤسس المذهب الشيوعي الملحد يقول : الانسان يتواجد أولاً .. ثم يحدد ماهيته بعد ذلك .. بمعنى أن الانسان يأتي الى الحياة كالحيوان يكتشف ذاته بينما لا يكتشف الحيوان ذاته . فأني أقول ياسيد ماركس اذا كنت قد اكتشفت ذاتك .. ومقدر أنك على الحياة .. واكتشفت أن لك العقل الذي تفكر به وتعنى ما حولك واكتشفت أن حولك مواد حية ومواد ميتة .. مواد سائلة وصلبة ومواد غازية ... ألم يمر في تفكيرك هذا السؤال وهو كيف تكونت هذه المواد ... ومن جاء بها الى الوجود .. ياسيد ماركس ... اليس من اكتشاف ذاتك على الأرض أن تفكر فيمن أوجد مادة جسمك والمواد التي تحيط بك على الأرض وهل ينبغي أو يليق بنا أن نفعل أو نهمل بحسنا في مستقبلنا الحقيقي تحت شعار تخليص الفقراء أو الهمال من ذلك الظلم الحقيقي الذي قد يكون واقعاً عليهم من أصحاب الأعمال أو من الأغنياء . وهل هؤلاء الفقراء الذين يدعى السيد ماركس أنه يهمل البحث في الايديولوجية المصيرية بسببهم . ولاجلهم يعلن حكمة النيايى على كل الأديان السماوية بأنها أفيون للشعوب .. هل هؤلاء الفقراء يقبلون عقلانيا التخلي عن المستقبل الزمنى العريض بامتداده اللانهائى من أجل بضعة اموام قد تكون سعيدة .. وقد لا تكون .. يقضونها في هذه الحياة .. وهم مجردين من كل دلالات الأمن والأمل في هذا الزمان الذي تأتى مسيرته ومباشره بعد تلك النقطة الزمنية التي تنتهى عندها حياتهم كأفراد أو كجماعات .

وانا أفهم واعتقد أن طبقة المال في بعض البلاد الرأسمالية قد تتحمل كثيراً من أعباء المجتمع الصناعي الرأسمالي دون فوائده وهذا ظلم بين قد تكون الوسيلة الوحيدة لدفعه اشغال نار الثورة ضد المجتمع الصناعي الرأسمالي ونحوه الى مجتمع اشتراكي توزع فيه الأرباح والمخول على أسس عادلة .

غير أن الشيوعية التي ينادى بها السيد ماركس والتي تعرف بالمادية الماركسية أو المادية الجدلية تنادى أيضاً بـرد حركة العقل الى المادة وبأن تلغى الذاتية برد العالم ومن ضمنه الانسان إلى نظام يتكون من اشياء ترتبط ببعضها البعض برابط كونية . ومعنى ذلك أن السيد ماركس ومن ينادى بإرائه من الماديين الجدليين والشيوعيين يستنكرون على الانسان أن يعترف بذاته الانسانية وأن يبحث عن حاضر سعيد ومستقبل مشرق يحقق فيه هذه الذات ويدفع فيه عنها كل ضرر وعلى ذلك فأنى أرجو أن أبين للبشرية جماء هذه السخافات التي تقال عن ذاتيتهم البشرية ، كما أرجو أن أفند أمام البشر مزاعم وضلالات المادية الجدلية ، وكذلك مزاعم وضلالات الوجودية السارتريية ، غير أننى سأقصر حديثى في هذا الكتاب على مخاطبة أولئك الذين يعترفون بانسانيتهم وبذاتهم الانسانية المفكرة .

وإذا رجعنا إلى السؤال المنطقي الذي وضعناه نصب أعيننا وعلى بساط البحث وهو من هو الذي أوجد المساحة في الكون الذي نعيش فيه ؟

ولقد ذكرت في السابق من حديثي واحدة من البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان أو إيجابات ، والتي يعرفها الانسان ويؤمن بها إيماناً عقلياً قاطعاً ، وهي أن الكل أكبر من جزئه مهماً كبر .

كذلك فأنى أذكر بدئية أخرى يؤمن بها الانسان إيماناً شديداً وثيقاً .

بها ثقة مطلقة وهي أن كل صنعة لها صانع ، وكل شيء موجود لا بد له ، من موجد فالمنضدة التي أكتب عليها لا بد بداهة من صانع لها هو النجار .

ولقد آمنت البشرية على مرور الأزمان بتلك البديهية وتمسكت بها في ثقة وقوة ، بأنه لا يمكن لأى شيء أن يوجد بدون موجد له .

وأريد أن أخطب العقل الانسانى الرشيد : هل هناك شيء يوجد بدون موجد له ، ولن نجد في الحياء شيئاً يوجد بدون موجد مهما عددنا الأشياء وأطلقنا عددها .

ولقد اطلت في عرض هذه البديهية بصورة أخشى أن تكون مملة وما ذلك إلا لأننى كنت يوماً أناقش واحداً من الذين ينكرون وجود الله ومن ذلك النوع الذى أطلقت عليه المذهب اللامنطقى الملحد وكنت أقول له : ألا تعتقد أنه لا بد لكل صنعة من صانع ، فيزد على بكل برود ، لا ، لا أعتقد ، فربما كانت هناك صنعة بدون صانع ، وحينما أقول له إن العلم والعلماء ينادون بأن للسادة لا تفنى ولا تخلق من عدم ، وبأن الطاقة لا تفنى ولا تخلق من عدم ، كما إنك حينما تترك حجرتك خالية ومنغلقه لمدة عام مثلاً ، فإليك لن نجد شيئاً ما بداخلها قد أوجد نفس من لا شيء .

وحينما أقول أن العلماء قاموا بمجهودات ضخمة ليثبتوا للعالم أنه ما من شيء يحدث إلا كان وراء حدوثه عامل أو عوامل حية أو ميتة أثبتوا لنا مثلاً أن تعفن اللحم يحدث نتيجة لنشاط البكتريا فإنه يرد ببرود قائلاً : من الممكن في يوم من الأيام أن تكتشف الإنسانية مادة صنعت من غير صانع .

وبالطبع لا أستطيع ولا أريد أن أرد على إنسان يقول لى ما شأنى بهذا الوجود ولماذا يعينى أن أبحث عن صنع هذا الوجود ؟ . . ويعتقد أن من

الصواب أن نترك هذه القضية التي تحمل بين ثناياها قيمنا ومقدراتنا ولعل
وعسى أن تنكشف البشرية في يوم من الأيام إنها كانت على باطل وأن الشيء
قد يوجد من الأشياء .

بالطبع لا أستطيع ولا أريد أن أرد على هذا الإنسان . . . وهذا ما
أشرت إليه آنفاً أنه الإنسان اللامنطقي الجدل الملحد . . . وإنما يقود حياة
نافية لا قيمة لها .

ونعفى في قضيتنا المروضة على بساط البحث فنقول : ما انفكت عقولنا
الرشيعة تعلن لنا . . . إننا في عالم يزخر بالمادة ويزدهم بها . . . وأن
الفضاء يزخر بالكواكب والنجوم والأقمار . . . وأن الأرض التي نتخطها
مسرحاً لنشاطاتنا لا تمثل في هذا الفضاء إلا حبة رمل . . . وما انفكت
عقولنا الرشيعة تعلن لنا في قوة وفي حزم أن لكل صنعة صانع . . . وأنه
لا يوجد الشيء من الأشياء . . . وإذا : من هو الذي أوجد المواد كلها . . .
والطاقات كلها .

من هو الذي أوجد الشمس . . . تلك الكتلة الضخمة التي تعادل الأرض
ملايين المرات . . . من الغازات الملتهبة المتوهجة . . . التي تشع لنا الحرارة . .
حتى لنضج من حرها ونجمن على هذا البعد الشاسع . . . وتشع لنا الضوء حتى أن
العين المجردة لا تحتمل النظر المباشر إليها مدة طويلة .

من هو الذي أوجد الأرض والقمر والسحاب والمطر والرمل والشجر .

من هو الذي أوجد طاقة الضوء التي تبصر بها الأشياء .

من هو الذي أوجد طاقة الحرارة التي تسبب لنا الحفء والنشاط .

من هو الذى أوجد لنا ذلك كله وصنعه لنا .

ولا أظن هناك من يتنكر وجود الشمس .

يا جان بول سارتر هل تنكر وجود الشمس

يا سيد ماركس هل تنكر وجود الشمس

يا مسيو جارودى هل تنكر وجود الشمس

أجيئوني أيها السادة ، فى صراحة وبدون التواء .

أجيئوني أيها الفلاسفة ، الذين تعاليم على الانسانية .

وأرهمتموها عسراً ، وبدنتم طاقاتها ، هل تنكرون وجود الشمس
ولا أريد شرحاً مفصلاً للمادية الجدلية يا سيد ماركس .

ولا أريد دفاعاً عنها يا مسيو جارودى .

ولا أريد أيضاً إعلاناً بطلانها يا سيد سارتر .

إنما أريد فقط أن تحدثوني عن شيء بسيط لا يحتاج إلى فلسفة ولا يحتاج
إلى جدل ، من هو الذى أوجد الشمس . ؟

ولقد يقول ماركس فى كتبه ، بكل أناة وبدون خجل أن أول ما تدهوا
إليه المادية هو إنكار وجود الله .

كما يقول السيد سارتر فى كتبه إننى شديد الميئاذيريقية فى رفضى لوجود
الله ، ويؤيد السيد جارودى رأيهما فى رفض وجود الله .

ولكن صبراً .

حظناً أيها السادة . . وإذا . . من هو الذى أوجد الشمس تلك البكته

العظيمة من الغازات الملتهبة .. والتي كانت بالفعل ملتهبة منذ سنين لا تستطيعون
عدها .. ولا تستطيعون لما تخيلا ..

والتي مازالت ملتهبة وستبقى كذلك إلى ما شاء الله أوجدها .

حسناً أيها السادة .. وإذا هل وجدت الشمس بدون موجد ..
وكيف هل يوجد الشيء من اللاشيء .. وبدون موجد وكيف
هل ينتج اللاشيء من ذاته شيئاً من تلقاء نفسه وكيف وهل اللاشيء يمكن
أن يعطي شيئاً أى شيء .

وكيف .. لقد كان الكون فراغاً .. فكيف جاءت من الفراغ مادة ..
وكيف جاء من اللاشيء شيء وشيء رائع وعظيم .

يامسيو سارتر .. هل يستطيع البشر أن ينتجوا من الفراغ مادة .. وبدون
وسيلة يامسيو جاردى هل رأيت في سالف حيائك مادة تنتج من اللاشيء
وبدون تدخل احد .. يامسيد ماركس : هل اللاشيء وهو الفراغ المطلق
يفتح الاشياء ويصنعها ، واناشد البشرية أن تتصور معنى ما يريد فلاسفتنا العظام
أن يقولوه .. انهم يقولون منكراً من القول كان الكون فراغاً بلقماً فليس
هناك الكترون ولا بروتون ولا أكثر من ذلك ولا أقل .. وليس هناك
طاقات حرارية ولا ضوئية .. ولا غير ذلك من ضروب الطاقة .

ثم فجأة وبدون سابق انذار وجدت من الفراغ شمس ونجوم وكواكب
وآد من بحار .

كيف حدث ذلك .. وبأى وسيلة حدث ؟؟ .
ولا أغن هناك من الناس عاقل أريب يصدق هذا القول .. أو يؤمن به ..

وأناشد البشرية جمعاء أن تتصور متى أن أعلم علماء العالم وأكثرهم مهارة ، قد أدخل في حجرة مفرغة من الهواء تماماً ، وغالية من كل مادة ، هل يستطيع هذا العالم أن يوجد من الأشياء الذى حوله الكترون واحد ، وبدون استخدام أو استهلاك أى نوع من أنواع الطاقة .

وإذا كان السيد جارودى يعلن أن المادية الجدلية هى المادية التى تبدأ حركتها بإنكار أية معرفة صحيحة خارج نطاق المعرفة العلمية فاننى أسأل السيد جارودى هل من العلم فى شيء أن نعتقد أن المادة توجد من لا شيء .

وإذا : فهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن ينكر وجودها . !

وهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن ينكر حقنا فى التساؤل من أوجدتها .

وهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن يعلن إنها وجدت من العدم بدون موجد لها .

وإذا : من هو الذى أوجد الشمس يا سيد جارودى ، وفى واقع الأمر لا نجد إلا إجابة واحدة مقبولة ومقبولة هى أن قوة عظي قد أوجدت الأرض والشمس والقمر هذه القوة العظمى تنصف بالعلم والحكمة ، إذ أن الموجودات التى نراها فى الوجود تسلك مسلكاً معيناً ينهض على قواعد معينة وهذه القواعد تدل على حكمة من أوجدتها وحسن تدبيره ، كما أن هذه القوة العظمى قوة حية . . . إذ الجاد لا يوجد نفسه فضلاً عن أنه لا يوجد شيئاً عداه .

وفي هذا المجال فأنى أتدكر وأذكر إني كنت في بدأ حياتي أسهل خطباتي
بكتابة :

« بسم الذى أوجدنا وما كنا لنوجد دون موجد » وكنت أعنى بذلك
أنه بما أننى قد وجدت نفسى على الأرض ووجدت شمساً تضىء لى ، وقرراً
يعكس ضوءها ، ونجوماً وكواكب وسمااء وبحار فأنى لا بد أن أعتقد
أن هناك قوة أوجدت كل ذلك ، وبما أن كل ذلك قائم على نظام دقيق
ومحكم فلا الشمس تصطدم بالقمر ، ولا الأرض تصطدم بالقمر ،
فأنى لا بد أن أعتقد أن هذه القوة عظيمة حكيمه فضلاً عن أنها
حية . . إذ أن الميت كما سبق أن ذكرت لا يوجد نفسه . . فضلاً
عن أنه يوجد ما عداه وبما أن هذه القوة الحية العظيمة قد أوجدتنى ومن
حولى من البشر ومن حولى من الجماد والأحياء ، فأنى أقدرها لذلك وأهتف
باسمها ، كلما أشرق صبح أو غمس ليل ، هذه القوة العظيمة الحية التى
أوجدتنا هى الله الذى نبيده مخلصين له الدين ، وهنا المتناف الذى كنت
أزره بسم لذى أوجدنا وما كنا لنوجد بدون موجد ، ما زلنا نهتف به
قائلين بسم الله الرحمن الرحيم . وسواء أَرْضى السيد جارودى أو سخط ،
فاننا لن نعمل المتناف بسم الذى خلقنا ، وبسم الذى يملك مصيرنا ومستقبلنا
الحقيقى ، بسم الله الرحمن الرحيم .

يا سيد سارتر هل يستمعى عليك أن تقوم هذا القول ، وهل
يفضلك يا سيد مارصك . أن تعبد الله الذى خلقنا والذى سيرجعنا بعد
الموت أحياء .

وفي واقع الأمر . ما كنت بالذى يدخل البشرية في دوامة عنيفة من
الجلد العقيم أو من السفهة الكلامية ، يزيد بها شكوك البشرية وآلامها

مثلاً فعل السيد سارتر ، أو مثلاً فعل من قبله السيد ماركس والسيد جاردنى
وكل ما أقصد أن أبينه للبشرية جمعاء :

إن الانسان موجود على الأرض يبصر ويسمع ويتكلم ويعقل . ويحرص
على ما يفيد ، ويتقى ما يسبب له الضرر .

وأقول بعد ذلك إن الانسان يجب أن يحرص على مستقبله سعيد وآمن
وكذلك على حاضر سعيد ومطمان .

وأقول بعد ذلك أن الانسان يجب أن ينظر إلى مستقبله الحقيقى بعين
العناية والاهتمام .

وأقول وهو الأهم فى قولى أنه ما دام الانسان يرى نفسه مادة ويرى العالم
من حوله بمحفل بالمادة ويزخر بها ، وما دام الانسان يعلم يقيناً أنه لا بد لكل
موجود من موجد أوجده ، فلا بد أن يؤمن الانسان بوجود قوة عظمى أوجدت
هذا الكون وخلقته من العدم .

فاذا ما آمن الانسان بذلك فيجب أن يعلم أن هذه القوة العظمى هو الله
الذى نخلص العبادة ، ونشكره على ما وهبنا من النعم ونرجوه على القوام
أن ينعم علينا بمستقبل آمن سعيد .

وهناك من الناس من يقولون من الضلالة والاثم مدعيان أن الطبيعة هى التى
أوجدت نفسها ، بطريقة تجهلها ولا يعيننا أن نعرفها ، وأقول لهؤلاء وأمثالهم ،
إن الطبيعة صنم كبير ، لا يعقل ولا يدرك ، ولا يحس ، وهى ليست قوة حية
ولكنها قوى وطاقت ممتدة ، هارياح والانهار والشمس المضيئة ، كلها تكون
قوى الطبيعة وطاقاتها ولا يمكن للميت أن يوجد نفسه بنفسه فهذا ما يناق
مع العقل ، ولا يستقيم مع طبائع الامور .

وإذا ما ادعى هؤلاء أن الطبيعة التي يقصدونها قوة حية وعاقلة وحكيمة
وخرجوا بها عن الماديات والأشياء التي لها حيز محدد في حدود صوره ،
فأنتى أقول أن ما يسمونه بالطبيعة نسميه نحن « الله » مع فارق بيننا وبينهم
هو أننا نعظم الله الذي أوجدنا ونعبده ، ونرجو رحمته ورضوانه وهم يتبنون
خلقهم وأهواؤهم ، دون ما سند من العلم أو من العقل ودون ما يرهان من
الواقع أو حتى من الخيال .

أذكر أيضاً أن إناساً عاشوا في القرن الماضي ، وكانوا يطلقون
على أنفسهم اسم الوضعيين ، رفضوا أن يتطوعوا برأى في مسألة وجود
الله ، لأنهم اعتبروا كل ما يمكن التكهن به في هذا الموضوع غير قابل
للتحقق منه .

ويؤيد السيد سارتر مذهب الوضعيين قائلاً :

وهذا الموقف الذي وقفه الوضعيون أقفه أنا مع فارق واحد هو إننى
لا أعتبر نفسى أقل ميتة فزيقية في رفضى لوجود الله مما كان لـ ليبنتر في
تسليمه بوجوده .

ولا يسعى إزاء كل هذه الأضاليل والآكاذيب إلا أن أذكر بالرياضة
برهاناً لوجود الله ، ذا كرا في كل خطوة كيف يمكن التحقق من الصحة
المطلقة ، لهذا القول .

هناك في العالم مادة بأحجام كبيرة ومختلفة .

(ويمكن التحقق من صحة هذا القول بالبصر ، حيث نرى الشمس
مثلاً) .

ولكن لا توجد في الوجود مادة بدون موجد لها .
(ويمكن التحقق من صحة هذا القول بإغلاق خرقة مثلاً ، لآى فترة زمنية
فاننا منجبها كما تركناها)

إذاً لا بد أن يكون هناك خالق للكون الذى نعيش فيه ، والمواد التى
يحتويه هذا الكون .

- الجاد لا يمكن أن يوجد نفسه ، ولا أن يوجد شيئاً سواه .

(ويمكن التحقق من ذلك بترك حجرة مغلقة بداخلها كرسى مثلاً ،
فترة من الزمن ، فاننا لا يمكن أن نجد كرسياً آخر بالحجرة أو
قباب مثلاً) -

· هذا الخالق الذى أوجدنا لا بد وأن يكون حياً

· الكون معقد جداً ، ويسير على نظام دقيق

(تحقق منه المعلم الذى ندرسه)

· هذا الخالق حى وحكيم ويحسن التدبير

وهو المطلوب إتياء

وإذا جد فنحن لاننا نهم بمستقبلنا الحقيقى ، وهنا شئ واجب على
كل البشر ، ودلى كل إنسان يعتز بنفسه ويأنف أن يردّها موارد التهلكة
فى غير ما غاية نبيلة

نحن لاننا نفعل ذلك ، فاننا لا بد أن نلقى نظرة عقلانية إلى المسألة

الذى نمشي فيها

وإذا كان السيد سارتر يشك في أن الكون لا يحتمل في حد ذاته أن
يضمن للنظر العقلاني العملي فإنا نقول له:

يا سيد سارتر الانسان وجد نفسه على هذه الحياة ومنذ العصور السالفة
وجد حوله الطبيعة بكل ما فيها من هوامل حية وعوامل ميتة وجد الوحوش
الضارية تتربص به ريب المنون ووجد الثعابين الخبيثة تحاول كلبا وانها
الفرصة أن تدس السم الزعاف في دمه فكان اندفاعاً على أن يحاول الدفاع عن
نفسه بالوسائل التي يستطيع اتباعها وكما كان حديثاً في تبرير الفكر والدهوة
إليه ، كان الانسان في اندفاعه الفكري الطبيعي والذي لا خيار له فيه ،
ملزماً ومطالباً باستكشاف موقعه في هذه الحياة ، ومن ثم يسعى نحو تأمين
مستقبله الحقيقي منها وذلك بالايمان بتلك القوة التي أوجدته وأحكمت بنيانه ،
والتي آمن بها بالفكر وليس بالجهالة .



المبحث الرابع

النظام .. دليل عقلي قاطع على وجود الله

نستطيع جميعاً أن نرى الشيء المنتظم وأن نميزه سريعاً .. فإذا كان الشيء مرتبطاً في سلوكه بقواعد ثابتة لا يحدوها ... أما أن يسلك الشيء سلوكاً اعتباطياً وبغير ارتباط بقواعد ثابتة فإن الشيء يكون قوضاً في سلوكه . أو غير منتظم السلوك . فالضوء مثلاً منتظم في سلوكه إذ أنه يسير بسرعة ثابتة في الوسط المتجانس ... وفي خط مستقيم ... أما الحركة البروانية التي تتحركها جزيئات البروتوبلازم في الخلايا النباتية الحية فإنها حركة اعتباطية إذ أنها لا ترتبط بقواعد سلوكية ثابتة .

ولقد نجد في واقع حياتنا كثير من الأمثلة التي تفرق بين الشيء المنتظم أو الذي يسير على نظام ثابت ... وبين الشيء الفوضوي والذي يسير اعتباطياً في سلوكه وبدون أي نظام . غير أن الشيء الهام الذي أقصده أن الشيء المبت لا يمكن أن ينظم نفسه بنفسه .. إذ أنه لا يملك الإرادة التي يسيطر بها على نفسه ... أو يخضعها لقواعد وأسس تنظيمية معينة .

وحينما أقول أن الجاد لا يملك الإرادة التي يسيطر بها على نفسه ... فأنى أشير إلى أن الجساد معدوم الإرادة كلية ولا يملك على الإطلاق أي نوع من أنواع الإرادة . ويستطيع السيد جارودي أن يتحقق من قولي .. كما يستطيع الوجوديون ومعهم السيد سارتر أن يتأكدوا منه بسهولة .

أحضير يا مسيو جارودي عشر قطع من الخشب وضعتها في أي وضع تشاء

وبأية كيفية تريد . . . وأكون كاذباً لو حاولت بعض هذه القطع أو كلها أن
تغير من هذا الوضع الذى فرضته أنت بإرادتك عليها .

طافاً بها وجدنا فى الواقع الذى نعيش فيه جماداً يلتزم بأساليب ونظم
معينة . . . ولا يجيد عنها فاتهاك بد أن نعمل ذلك بأن قوة حية قد ألزمت بهذه
النظم . : أخضعته لهذه الأساليب بعينها .

وأول ما أضرب به المثل . . . هذه القطعة الصغيرة المجدبة من الحديد
المغناطى إنها ترفض باصرار أن توحيد عن اتجاه ثابت . . . كما أنها تجذب براءة
الحديد إليها . . . وتأتى أن تجذب النحاس . . . أى أنها تربط فى سلوكها بقواعد
ثابتة لا توحيد عنها .

وإذا كنا نعلم تماماً أن المغناطيس جماد . . . وأن الجماد معدوم الإرادة
بالنسبة لنفسه ولمن عداه . . . فلا بد أن تقرر أن قوة حية من خارجه قد ألزمت
بهذا السلوك وأجبرته على اتباعه .

ثم لماذا :

تجذبنا الأرض إليها يا مسيو سهرتر ؟؟ هل فكرت فى هذا السؤال وأنت
تعمل على الملأ أنك شديد الميئاذيريقية فى رفضك لوجود الله .

وكما يعلم بقينا أنت الأرض جماد . وأن الجماد معدوم الإرادة بالنسبة
لنفسه وبالنسبة لمن عداه .

وبالرغم من ذلك فإن الأرض تجذبنا إليها بقوة تطلق عليها قوة الجاذبية
الأرضية وكنا يقرر بثقة وإيمان لا بد من أن قوة حية عظيمة قد ألزمت
تكوين الأرض بأن يجذبنا إليه وذلك أيضاً لأن الحياة بدون الجاذبية
الأرض حياء صعبة ولا يمكن أن تطلق . ولقد عاش عشرة من العلماء تجربة

علمية بعيدا عن الجاذبية الأرضية .. لفترة قصيرة قرروا بعدها أنها حياة صعبة ولا تطاق ..

ومعالم يستقيم مع طبائع الأمور أن يكون كوكب الأرض قد أخذته الرحمة بنا فقرر أن يجذبنا إليه .. إذ أن كوكب الأرض جاد .. لا يفكر ولا يعقل وليست له إرادة .. لكن الذى يستقيم مع طبائع الأمور أن يكون هناك إله قوى رحيم قد ألزم هذا الكوكب يجذبنا إليه رحمة بنا والحكمة أرادها مولانا جل وعلا

لماذا تدور الأرض حول نفسها بإسبىد سائر ..

ولماذا تجعل الدورانها توقيتا دقيقا .. مرة كل أربع وعشرين ساعة .. وكيف يتم ذلك يامسيو جارودى .. هل تلبس الأرض ساعة حول معصمها .. أو أنها تضع منبها على منضدة بجوار السرير الذى تنام عليه فى غرفة نومها .. وكلنا يعلم يقينا أن الأرض لا تملك عقلا .. ولا معصما .. كما أنها لا تنام على سرير .. وليس لها عين تبصر بها .. كما أنه ليس لها أية إرادة بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن هداها .. وكلنا يقرر بثقة وإيمان .. أنه لا بد من وجود قوة حية عظيمة قد ألزمت كوكب الأرض بالدوران حول نفسه .. والدوران مرة كل أربع وعشرين ساعة .. لا تنقص ولا تزيد .. هلى من الزمن السرمدى

وكلنا يقرر بثقة مطلقة أن الله جلت حكمته هو الذى أوجد الأرض من العدم ثم أمرها باتباع نظام ثابت ودقيق .. أمرها بأن تجذبنا إليها فنجذبنا دون أن تكون لها إرادة .. وأمرها أن تدور حول نفسها .. فدارت .. ودارت .. وما زالت تدور وتدور .. ولن تزال إلى أن يشاء الله رب العالمين

لماذا تجذب الشمس إليها ، يامسيو جاريدى •
هل هناك من يفترض لتلك الكتلة الملتببة المتوهجة من الغازات والتي
نسميها الشمس ارادة بالنسبة لنفسها •

وكلنا يقرر في ثقة وإيمان أن الشمس جماد ومن ثم فهي لا تملك أية ارادة
بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن عداها ، ولكن قوة حية عظيمة هي قوة الله
الرحمن الرحيم قد ألزمت هذه الشمس بأن تجذب الارض اليها ، لحكمة
سامية قد يعلمها الناس وقد يجهلون:

هل أنت الان شديد الميئاذيقية في رفضك لوجود الله يامسيو سارتر ..
واود ان تعلم البشرية جمعاء انه لا يعنى في شىء ان يقتنع المسيو سارتر
بصدق حديثي .. اوبتلوا في ميئاذيقته الضالة .. عابثا بمستقبله الحقيقي
مبددا لطاقته وقدراته فيما لا يحقق نفعا ولا يرد ضررا .. لكن الذى
أعنيه ويهمنى انقاذ ما يمكن انقاذه من ضحايا سفاح الارواح العالمى الشرير
جان بول سارتر الذى لا تدرى به البشر .

إن رجالات العلم من العصر الحديث قد اتبعوا طريقة في تحصيل العلم تنفق
مع كرامة العلم ومع كرامة العقل البشرى والذات الانسانية . ذلك انهم يصفون
ما يشاهدون من ظاهرات الكون بأمانة ودقة ثم يضعون آراءهم وتفسيراتهم
التي يدعونها ويبرهنون على صدقها بالتجارب العملية . وبفضل ذلك تقدم
العلم قفزا في جميع مجالاته .. وتقدمت الانسانية بفضل العلم والمعرفة حتى
اضحت في اوج القوة وفي اوج الطموح .

لكن العلم ورجالاته يقفون امام الواقع كما يقف التلميذ امام استاذ ..
فهم يستطلعون هذا الواقع ايا كان .. ثم يحولون تقريره بوسائل ومسببات

عقلانية مقبولة ، ثم يحاول لون التماس ما يبرهن على صدق أسبابهم وعلاهم من الواقع بالتجربة العلمية أو الاستدلال العلمي .

وعلى سبيل المثال ، حين يرى رجالات العلم إن الشمس تشرق على بقعة من الأرض ، بينما تظلم عن النصف الآخر منها ، ثم ما يلبث الحال أن ينعكس ، فيضيء المظلم ، ويظلم المضيء ، فان رجالات العلم يقررون أن الأرض مستديرة في شكل يقارب شكل الكرة ، كما يقدررون أن الأرض تدور حول نفسها ، مرة كل أربعة وعشرون ساعة ، وبالطبع هم صادقون في قولهم .

لوفرضنا جدلاً أن الشمس هي التي تدور حول الأرض ، لما تردد رجال العلم أن يقولوا : إنه نظراً لأن الأرض أصغر من الشمس فانها أسرع منها في الحركة ، ومن ثم فان الشمس تدور حول الأرض .

كما أننا لوفرضنا أن تعمل على أبعاد الأرض عنها ، لقال رجال العلم موافقين . أن الشمس تبذل قوة من أجل أبعاد الأرض عنها ، لكن الغلاف الهوائي يعمل على الحفاظ على موضعها .

ولو فرضنا أن الأرض تحصل على الطاقة من ذاتها دون تدخل الشمس ، ولم تكن هناك أى علاقة بينها وبين الشمس ، لوافق العلماء دلي ذلك بسرعة قائلين إن الغلاف الجوى المحيط بالأرض غنى جداً بالطاقات اللازمة للأرض ومن ثم فانها تكفي ذاتياً .

وهكذا ، فان رجالات العلم يفتنون أمام الواقع كما يقف التلميذ أمام أستاذه ، فهم يبذلون كل ما لديهم من جهد في استطلاع أسرار الكون ثم يقبلوها كما هي ، ويحاولون تبريرها أيا كانت وهذا في حسد ذاته شيء حسن ولا يمكن .

غير أنى أجدر لزاما علينا أن نتمسك إلى بواطن الأمور . . . وأن لا نقف
ههنا مجرد التبرير . . . فبدلك نستطيع أن نكون أساندة لواقع . . . وليس
مجرد تلاميذ له .

وعلى سبيل المثال .

نحن نرى الشمس تجذب الأرض . . . وبالطبع هذا واقع ونحن ملزمين
بقبوله . . . ولكن لنا أن نسأل . . . لماذا تجذب الشمس أرضنا . . . وبالطبع
لا يكفي أبداً أن نهرر . . . وأن نقول لأنها كانت جزءاً منها أو لأن الجزء يجذب
الكل إليه . . . أو لأن الشمس تملك قوة جذب كبيرة . . . لا يكفي هذا أبداً
وعلىنا أن نبحث وأن نكون أكثر تعمقا .

علينا مثلاً أن نقول . . . ومن هو الذى منح الشمس قوة الجذب الكبيرة
التي تجذب بها الأرض . . . أو من هو الذى ألزم الكل بأن يجذب الجزء في
حالة الشمس والأرض .

وعند ذلك سنعلم بوضوح أن الجماد لا يمكن أن يتصرف من تلقاء نفسه
وأنه لا بد من قوة حكيمة حية آمرة . . . تصرف الأمور بناءً على دقيق . . .
لا يتغير . . . هي قوة الله الحكيم العليم .

ههنا ذلك نكون قد فهمنا حقيقة الواقع وفهمنا حقيقة أنفسنا معه . . . وفهمنا
أن حالته التي نراها هي حالة معينة أرادها الخالق جل شأنه . . . ولو أراد غيرها
لكان ما أراد ولوجدنا نحن من الأسباب والعلل ما نفسر به ما نراه .

حسنًا . . . العقل البشري شيء باطل يجب أن ترد حركته إلى حركة
المادة . . . وكذلك العلم وهو الابن الشرعي للعقل البشري هو أيضا باطل وهو
لا يعتبر إلا عن وجهه النظرة البورجوازية . . . لكان هؤلاء القوم يريدون

للإشرية أن تصم آذانها . . وتغمض عيونها وتمطل عقولهم ثم تسلم قيادها لهم . ليقودوها إلى مستقبل بأئس وتميس ،
ولنلق نظرة هادئة إلى أنفسنا . . كل منا يرى نفسه جيداً ويعرف عنها الكثير . . ويكون من لائق لو أنكر السيد سارتر وجود نفسه . . حتى يشبع في نفسه عقدة الإنكار أو الرغبة فيه وأول ما يستثير اهتمامنا في الإنسان . . عقلة البشرى العجيب ذلك أنه كتلة من الخلايا الحية . . ولكنها تستطيع أن تفكر وأن تدرك وأن تمى . . وتستطيع كذلك أن تحتفظ بالمعلومات والمعاني بطريقة الحفظ التي نعرفها . . وكذلك فإن هذا العقل يعى بطريقة ما زالت بجهولة كل التجارب والخبرات التي تمر بالإنسان طول حياته . . بل إن تكرار الخبرة المؤلمة يسبب ما يعرفه علماء النفس بالعقدة .

وهذا ما . . يسجله رجال العلم عن العقل البشرى وعن قدراته التي لا يحصيها العد .

ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التعليل التي يحاول رجال العلم من خلالها أن يعللوا للظواهر التي يرونها ماثلة أمامهم .

وفي حقيقة الأمر إنه بالرغم من التقدم العلمي وبرغم كل الجهود المخلصة التي بذلها ويبدلها رجال العلم . . فما زالت الحقائق العلمية التي يعرفها العلماء عن العقل البشرى الغائزاً يصعب حلها . . وببل يصعب التمكن بحلولها . . وما زال الخلاف حاداً بين العلماء حتى حول الحلول التي يتكهن كل فريق منهم بها .

وعندما تأتي للرحلة الهامة وهي مرحلة التعمق إلى واطن الأمور وسير أغوارها . . فأننا نجد أمامنا في الواقع أشياء غريبة وبألغة القرباءة .

كتلة من الخلايا الحية تزف حوالى رطل ، تدبر الجسم البشرى كله وبكل كفاءة ، فيها مرا كز السمع والأبصار والحركة ، الخ . وتخرج منها خطوط اتصال بجميع العضلات الارادية فى جسم الانسان وتصدر منها الأوامر إليها جميعها ، فتنفذ هذه العضلات هذه الأوامر على الفور ، وعلى طريقة : طم الأوامر ولو كانت خطأ ، كما أن بها مرا كز اتصال تلتقط كافة الرسائل العصبية التى تصدر من الخارج ، فالعين تافذة للعقل على العالم يرى من خلالها ما يدور حوله من أحداث ، والأذن وسيلة العقل إلى التسمع والمحاطة وإلى تبادل المفاهيم ، وفضلا عن هذا فان هذه الكتلة تسجل فى داخلها كل خبرة يستطيع الانسان الحصول عليها ، ومن الممكن أن تحتوى بداخلها كل خبرات العالم وكل معارفه .

هذا فضلا عن كثير من الانفعالات التى تزيدنا حيرة وتعجبا .

فحينما يغضب الانسان أو يستبد به القلق ، أو يرتعد خوفاً ، فان الجسم بكل الطاقات التى يملكها يستجيب لهذا الانفعال ويتصرف طبقا لما يأمر به العقل ، وحينما يغضب الانسان يعبى كل قواه لمواجهة ما يغضبه ، وفى اللحظة التى يأمر فيها العقل مرا كز القوى بالم هجوم أو الا قاع ، فان هذه المرا كز لا تتوانى عن العمل ، بأقصى طاقة تستطيع بذلها .

ويأتى بعد ذلك الافكار التى ينتجها الانسان ، فى كل فن وفى كل علم ، فهذا عالم يكتشف ، وهذا فنان يبتكر ، وذاك شاعر يحيل الكلام إلى أداة تعبير جميلة ، وهذا فيلسوف يبحث عن الحكمة وينقب عنها ، ودلم جرا ونخرج من كل هذا بسؤال ، هل كتلة اللحم أو كتلة الخلايا المسكونة للنخ ، هل هذه الكتلة فى حد ذاتها كجموعة من الخلايا الحية تريد وهل لها فى حد ذاتها إرادة ذاتية ؟؟ .

وأود أن أقول : أنه ليس هناك على الإطلاق أى فارق بين خلايا المخ وخلايا اليد من حيث أن كلا منهما خلايا حية ، أما إذا قلنا أن خلايا المخ من نوع خاص هو الخلايا العصبية الحية فأنى أقول أنها تماثل خلايا النخاع الشوكى ، بدون أدنى فارق غير أن خلايا اليد لا تريد ، والانسان يحرك يده كما يوحى إليه عقله ، أى بإرادة العقل وليس بإرادة اليد ، ولو أن العصب الموصل لأوامر المخ قطع لصار شأن اليد وهى خلايا حية كشأن قطعة من الخشب وهى جاد ، أى بدون أى إرادة لا بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن عداها ، وأيضاً خلايا النخاع الشوكى لا تريد ، فالمخ فى حد ذاته لا يريد .

لكن الواقع الذى نجده ملحوساً أن المخ يريد ويملك الإرادة بالنسبة للانسان كوحدة وبالنسبة للوسط المحيط فى الحدود التى يملكها الانسان ، وسيطر عليها .

ومن ثم فأننا نستطيع القول بأن هناك قوة عليا هى التى تملك وحدها الإرادة فى هذا الكون وهى التى تمنح الإرادة للعقل بالنسبة لانسائه وبالنسبة للوسط المحيط ، وهى أيضاً تسيطر مباشرة على الجاد وتجعله يلتزم بقواعد وأساليب معينة .

وهذا فى الواقع التفسير الوحيد للعقل البشرى العظيم ، الذى حمل على عاتقه كشف أسرار هذا الكون ، كما حمل على عاتقه تذليل كل عقباته والوصول إلى حاضر سعيد مستقر ومستقبل آمن وسعيد .

هل رأيت يا سيد سارتر هذه الدودة الصغيرة السوداء التى تبلغ فى حجمها حجم رأس البوم ، والتى تنظاهر بالموت ، إذا ما وضعت أجسامك

قريباً منها . . ثم ما تلبث أن تتحرك خفية . . فإذا ما لاحقتها
بأصبعك فأنها تكرر التظاهر بالوت ، حتى إذا ما تيقنت أن هذه الحيلة لن
تجدي ، طارت في الهواء بعيداً .

وهلم تعلم يا سيد سارتر أن في هذا الحجم الذى يماثل حجم رأس الدبوس
جهاز تنفسي ، وجهاز هضمي ، وجهاز دوري وأعضاء الحركة على الأرض ،
وأعضاء للرؤية ، وأعضاء للطيران ، وبعد ذلك فضلاً عنه جهاز عصبي
مركزي « مخ » يقوم بوظائف التفكير في إعداد الخطط للدفاع عن حياة
الدودة أو للتخفي عن أعدائها .

وإذا كنا نعلم ذلك ، فما نعلم تعليلاً حقيقياً له إلا أن الله ذو العظمة
والجلال منح هذه الدودة الصغيرة في الحجم إرادة على ذاتها وعلى الوسط
الحيط بها ، بقدر إرادة لها سبحانه وتعالى :

وذلك التعليل لا يعد من العلم بحسب بل يعد من روح العلم ، إذ أن
العلم كما أوضحت يقف من الواقع كما يقف التلميذ من أستاذه ، ولكن روح
العلم يقف من الطبيعة موقف الأستاذ لتلميذه ، ولا شك أنه لا يمكن أن
يكون هناك أدنى تمارض بين العلم وروحه كما يتصور أو يصور أعداء العلم
وأعداء الإنسانية جمعاء .

هل رأيت يا سيد سارتر القلب الانساني ، وهل سمعت دقاته ذلك
القلب الانساني الذي يدق أول دقاته عقب خروج الانسان إلى الحياة ،
وتظل دقاته ، دوية طالما كانت هناك حياة ، وحين يتوقف هذا القلب وتضمت
دقاته ، فإن الحياة تتوقف وتفارق الانسان ويصبح الانسان شاة كشأن
الجدوع وقطعة من الخشب .

وإذا ما كان الانسان يعلم ذلك تماماً . . . وإذا ما كان الانسان يعلم أيضاً أن القلب ينبض لا إرادياً . . . أى بقوة خارجة عن إرادة الانسان فانه لا بد أن يفكر . . . بأى إرادة ينبض قلبه . . . وبأى إرادة يتوقف هذا القلب عن النبض .

وإذا كنا نعلم يقيناً أن القلب ينبض بانتظام حوالى ٧٥ دقة كل دقيقة فاننا لا بد أن ننسب الحكمة إلى القوة العظمى التى منحت كل القلوب الانسانية إرادة ذاتية هى النبض .

ويقول الشاعر الصوفي مخاطباً مولاه جل وعلا :

أحبك قلبى حين أدرك نبضه بأبك سر النبض سر السرائر

وكذلك يخبرنا العلم أن فى جسم الانسان كثير من العضلات التى لا تتحرك تبعاً لأرادتنا ولكنها لا تتحرك بمزاجها الخاص وبارادتها الخاصة . . . ولكننا نعلم أنه لا يمكن أن تكون الإرادة إلا للكائن الحى المستقل . . . وبالطبع القلب ليس كائن حى مستقل . . . كذلك فان العضلات اللاإرادية ليست كائنات حية مستقلة . . . ونحن نعلم أيضاً أن القلب وكذلك العضلات اللاإرادية تتحرك طبقاً لقواعد وأسس ثابتة أى تتحرك بانتظام . . . فلا بد أن نعلم أن هناك قوة عظمى قد منحت هذه الأجزاء إرادة ذاتية تعمل بها مستقلة عن إرادة الانسان وفى سبيله . . . وفى سبيل حفظ حياته . . . وتأدية الوظائف الحيوية التى ترتبط بها .

هل رأيت أو سمعت عن الميتوكوندريا يا سيد سارتر . . . أنها كما يقول العلم جسيمات ^(١) صغيرة جداً تبلغ جسم الواحدة منها $\frac{1}{1000000}$ من المليمتر المكعب .

(١) نقلاً عن محاضرة للدكتور أحمد فرج راضى محاضر علم فسيولوجيا الجهاز الهيكلي علوم أسبوط .

ورغم ذلك فإن هذه الجسيمة التي تباع من الضالة أقصاها . . حينما وضعت تحت ميكرومكوب الكروني . . ثبت أنها على شكل صندوق ذو ثلاثة جدران . . وبداخله أرفف . . فوقها أنزيمات لازمة لحياة الخلايا النباتية الحية . .

ما قولك يا مسيو سارتر . . فيمن أوجد هذه الجسيمات . . هل أقل من أن نعلمه بأنه بالغ الحكمة والقوة . . يقدر فيحسن التقدير . . ويدبر فيحسن التدبير . . وهناك أيضاً شيئاً نذكره هو أن جسم الكائن الحي . . لا يريد ذاته ولا يستطيع الإرادة على نفسه . . فالفيل مثلاً لا يستطيع جسمه أن يتحول من ذاته إلى جسم غزال أو نمر . . والإنسان مثلاً لا يستطيع جسمه من ذاته أن يتحول إلى جسم عصفور . . كذلك لا يستطيع جسم البقرة الخضراء أن يتحول إلى لون أحمر . . مثلاً . . لكننا وبالرغم من ذلك نجد أن هناك كائنات حية تستخدم التغير في لون جلدها كوسيلة للدفاع عن نفسها . . فهذه الحرباء حينما تكون في أوراق الشجر تكون خضراء . . وحينما تكون في الرمال . . تكون صفراء . . فهل أدرك جسم الحرباء أنه بهذه الوسيلة يكون آمناً من أعدائه . . أو متخفياً عنهم . . وهل الحرباء أكثر مهارة من كل ما عداها من الكائنات الحية حتى تستطيع أن تغير من لون جلدها تغييراً ذاتياً . . بدون وسيلة . . وبالطبع نستطيع جميعاً أن نعرف أن قدرة الله العظيم ورحمته هي التي منحت جلد الحرباء إرادة ذاتية ليغير لونه وفقاً لوسط المحيط .

وحينما نتأمل شئون الكون وطوائم الأمور يتأكد لدينا بما لا يدع للشك مجال أن الذي أوجد هذا الكون يقدر فيحسن التقدير . . ويدبر فيحسن التدبير . . فهذا النبات الضارب في الأرضي بمنجورة . . والباسق في الفهم

مفروعه ، مصنع كبير ، يقوم على أسس دقيقة وموازنة ، يحفظ الحياة لنفسه ، أعنى للنفس ، ويحفظ الحياة ان عداه من الكائنات مصنع كبير ، ينتزع من الهواء الجوى ثاى أكسيد الكربون الذى يخرج من فوهات المصانع فى المدن والذى يهدد البشرية بالدمار ، ثم يصنع منه ومن المياه وطاقة ضوء الشمس ، غذاء الانسان والحيوان ، لولاه ما عاش إنسان ولا حيوان .

ذلك يدل على حسن تدبير وحسن تدبير وهذا لا يتأتى عفواً أو اعتباطاً ، لكنه يدل على قوة متدرة ومدبرة قد أوجبت الكون ومن فيه هي قوة الله الرحيم .

النبات يابت من البذور ، والبذور كائنات حية فى وضع سكون ، والانسان هو الذى قد ينقها للتربة ، ثم تلتط فيه وينمو الكائن الحى النباتى ، لتنمو شجره كبره باسقة تحافظ على حياه الانسان وتمده بالغذاء .

ولقد يأخذك العجب حينما تشاهد ينبتين متماثلتين فى الحجم تنتج شكل منها شجره مختلفة من الأخرى تمام الاختلاف ، فكأن كلا منهما قد جففت أصل أبهما كايها عن كايها ، وكأن كلا منهما قد حملت بوصية والديها ، أو أجدادها ، ولقد نجذ البذور من يزود نفسه بأهداب تعمل حمل الإخنة تطير بها فى الهواء حتى تنشر نوعها فى ربوع العالم كله ذلك من تقدير حكيم عليم ، ذلك من تقدير ربها الذى يقدر فيضمن التدبير ويدبر فيسبحن التدبير .

وأود أن أكتب للضعفين وللشبهو سارتر: البرهان الثاى لوجود الله ، بنفسى الطريقة الرياضية التى ذكرت بها البرهان الأول :

لميت لا يملك الإرادة التي يسيطر بها على نفسه .

ونسطيع التحقق من ذلك بأن نحضر قطع الطوب أو من الخشب ونضعها
كما نريد فانها لن نحاول تغيير مواضعها) .
المعاد لا يمكن أن ينظم نفسه .

هناك كثير من المعادلات تخضع لنظم وأسس ثابتة لا تتجدد عنها .
(نستطيع التأكد من ذلك بملاحظتنا للمغناطيسية والجاذبية
الارضية ، الخ) .

∴ فلا بد أن تكون هناك قوة عليا حية قد نظمت هذه المعادلات
وأخضعتها لأسس ونظم ثابتة) .
وهو المطلوب إثباته .

نحن بالطبع لم نرتكب خطأ أو جرماً ، وكل ما فعلناه هو أننا قد نظرنا
إلى مستقبلنا الحقيقي نظره اهتمام ، حتى تنجوا كما نجي الحاكم العاقل الذي
أوردته الرواية القديمة ، وحتى لا نؤخذ على غره فهلك ونضيع ، ونحزق
نعمسنا ألم التعسر وصراره الندم غير ما جدوى أو نفع .

ونحن بالطبع لم نخطئ حين قررنا أن ننظر إلى العالم نظره عقلانية
علمية ، إذ أن النظرة العقلانية العلمية هي كل ملاحنا وهي أيضاً سبيلنا
إلى تكريس طاقاتنا وما نملك من جهد وإمكانات لصالح الحاضر الذي
نحياه ، ولصالح المستقبل العريض على امتداد الزمان الذي لا ينم في
هديره زمان .

فالأيام تسير وتتابع ، ولا بدليل من يوم ماضٍ إلا يوم آت ، وإلى أن
تزول الأيام وتزول دلالاتها الزمنية ، يبقى الزمان بدلالة أخرى ، يعلمها الله
الذي أوجد للزمان دلالاته ، التي قبلناها نحن كأمر واقع . . .

وإنني لاتصور وأقرر أن العقل كل العقل والحسكة والفتنة والقدح
والدهاء وما إلى ذلك من دلالات الاستحسان ، ليجب أن تسبخ فقط ، و فقط
على ذلك الذي يعطى جهداً وفكراً أتأمين نفسه في ذلك الزمان الذي ما زلنا
نجهل دلالاته الزمنية وإذا هو فعل ذلك فأنى أتيقن بشده إنه سيهدى إلى الحق
والخير وإلى صراط مستقيم .



المبحث الخامس

الإلهام - كدليل عقلي قاطع على وجود الله

يتقرب الإلهام في معناه من الارشاد ، فالرشد هو من يرشدك إلى سلوك معين ، ثم يتركك الحرية في اتباعه ، أما الملهم فهو من يوحى إليك بطريقة غير منظورة سلوكاً معيناً ثم لا يترك الحرية في اتباعه أو مخالفته ، وبحيث يكون الاجبار ذاتياً .

وطى سبيل المثال حينما يحضر إلى أحد بالاصداقاء ثم ينصحني قائلاً : « لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد » ، فان صديق هذا يعتبر مرشداً لي وأستطيع أن أنفذ إرشاده ، كما أستطيع أن أصرف النظر عن قوله ، أما حينما أجد نفسي ويرغمى وبدون تدخل أحد وبدافع ذاتي متدفقاً إلى الجنس الآخر ، ومنفذاً لسلوك معين هو وجوب العمل على المحافظة على الجنس البشرى بالتناسل وإنتاج أجيال جديدة أو ما يعرف بالمحافظة على النوع فان ذلك له تفسير آخر يختلف عن الارشاد .

ولقد يتأمل الانسان كثيراً في هذه القضية الفكرية شيء يتفقد رغم أنف منفذه وبدون أى ضغط خارجي وبدافع ذاتي عنيف .

وحينما تحدثت عن الارادة ذكرت أن الجناد ليست لديه أية إرادة لا على نفسه ولا بالنسبة لمن عباده ، فمن ثم فانه لا يستطيع أن ينظم نفسه بنفسه لو يخضع نفسه بنفسه لقواعد وأسس سلوكية معينة ، فإذا ما كان هذا الجناد يقبح فلا نظاماً معيناً لا يبدوه فان هذا يدل دلالة قاطعة على أن قوة حية

خارجية قد نظمت هذا الجماد وأخضعت له تلك القواعد والأسس السلوكية التي تراها .

هذه بالنسبة للجماد أو الشيء الميت ، أما الكائن الحي الحيواني الراق فان له إرادة يستطيع أن يفرضها على نفسه وأن يتصرف في حرية بما يتلائم مع بيئته وظروف حياته ، وحينما ينفذ الكائن الحي شيئاً رغم أنه أعنى بدون إرادته فلا بد أن تكون هناك إرادة أقوى من إرادته قد أجبرته على تنفيذ ما لا يريد ، ومثل ذلك الانسان الذي يرتكب خطأ في حق المجتمع الذي يعيش فيه بالسرقة أو القتل ، ثم يرى المجتمع أن من اللائق عقابه بالسجن مع الأشغال الشاقة فان هذا الانسان ويرغم إرادته يقضي فترة في السجن يتخللها العمل الشاق الذي ينفذه رغم أنه لأن إرادة تفوق إرادته قد أجبرته على هذا العمل .

أما إذا كان الكائن الحي المرید يتنفذ شيئاً رغم أنه وبدون ما إجبار من إرادة خارجية منظورة أقوى من إرادته فاننا لا بد أن نقول أن النافع إلى ذلك ذاتي ، بمعنى أن هناك إرادة ذاتية عند هذا الانسان تقف ضد الارادة الأصلية له ، وتعمل على إجباره على تنفيذ هذا الشيء ونحن نطلق على الارادة التي تجبر الانسان على سلوك معين ضد إرادته الأصلية بالالهام أو الغريزة وهذا الالهام أو تلك الغريزة تدل على لا يدع محلاً للشك على وجود الله . وتنفي ونعني بكل شدة أقوال السيد ميارتر ، وأذكر للتدليل :

ثعبان السمك الذي يعيش في شواطئنا المصرية ويسافر كل عام إلى المحيط الاطلسي وفي منطقة خاصة منه حيث يقعد مؤخر عام لثعابين السمك التي تعيش في العالم أجمع ثم تنكثر هناك وتقل راجعة إلى أوطانها الأصلية ثم تعود سفاريها كل إلى وطنه الأصلي دون أن تفضل الطريق ، أليس يحق علينا أن تبينائل

- هل تعرف ثمايين السمك في العالم أجمع أنه يجب عليها أن تلتقي في مكان معين كل عام ، وبالطبع لا ، ثمايين السمك لا تعرف لغة المؤتمرات التي ينظمها الانسان كما أنها لا تمد الخطط والمؤامرات لبعضها أو لغيرها من الأجناس .

ولو كانت تعرف أنه من الواجب أن تتحرك إلى هذا المكان لفرط في الواجب ~~كثيرون~~ معذرون معذرون بطول الرحلة أو بقلة الزاد والراحلة ، ولكنها تتحرك بلا إرادة أو بما ما نسميه بالفرصة ومن ثم فإن كل ثمايين سمك في العالم يجد نفسه في فترة معينة من الزمن متحركاً إلى بقعة معينة ، وصتاره التي ترى العالم لأول مرة تعود أدراجها في نفس طريقه دون أن تفضل الطريق .

من أين جاءت الفرصة وليس هناك من تعليل صادق إلا أن الله سبحانه وتعالى قد ألهم هذه الثمايين أن تفعل ما فعلته لضرورة يعلمها جل وعلا وهي ضرورة حفظ النوع وهي لا تعلمها ولا تدرك عنها شيئاً بل تفعلها بدون إرادة وبدون وهي .

ولعل هناك من يقول ألم يمكن من الممكن أن تبقى الاممك حيث هي وتتكاثر حيث هي ، وتحافظ على نوعها في أوطانها الأصلية ، وأود أن أقول : إن الله الكريم أوجد الوجود وأوجدنا نحن البشر على قمة الوجود نفكر ونذكر ونعني ، نفكر في الوجود ونذكر أنه لا بد له من موجد ونعني أن هذا الموجد هو الله .

وبرغم ذلك وجدنا رجلاً مثل المسيو جاره دي يعلم أن لا يؤمن بالله لأنه ينكر أية معرفة إلا إذا كانت داخل نطاق المعرفة العلمية ، وهذا بالطبع قول ساذج يتكبره العلم وهو أيضاً مبكر يكتفى أن نرد عليه بالقول : ومن أدراك يا مسيو جاره دي أن وجود الله ليس في داخل نطاق المعرفة العلمية .

وبعد ذلك أخضع الجمادات لأسس وقواعد ثابتة ، فالضوء مثلا يخضع
لأسس وقواعد ثابتة والارض تخضع لأسس وقواعد ثابتة رغم أن كل منها
جماد ، حتى نتيقن من أن هناك قوة حية عليا قد نظمت هذا الجماد ، وجملته
يسهر على أسس ونظم معينة لا يحيد عنها .

ومع أيضاً أوجد الفرائز والالهامات في الاحياء من خلقه كي يوعز إلى
الانسان في وضوح إنه بما أن هناك إرادة في نفسه ضد إرادته الأصلية وتفوقها
من حيث القوة وتدفعه رغم أنفه إلى القيام بأشياء أو تنفيذ أفعال معينة ، إذا
فلا بد أن تكون هناك قوة عليا هي التي فرضت على الانسان من ذاته إرادة
ضد إرادته ونستطيع الآن أن نبهت في هدوء هل العلم يتعارض مع وجود الله
وهل الايمان بوجود الله ليس في داخل نطاق المعرفة العلمية كما يقول السيد
جارودي .

وإذ كنا نحن نقول إن العلم هو النتيجة المباشرة للنظرة العقلانية للأمور
أولاً الواقع بمعنى أننا ننظر إلى الواقع ونفكر فيه تفكيراً سليماً ثم نكتشف
أسراره وخفاياه ونحاول الاستفادة من اكتشافاتنا هذه في حياتنا العملية .

ونحن حينما ننظر إلى العالم نظرة عقلانية سنقرر إنه يحفل بالمادة ويزدحم
بها كما أننا أيضاً حين ننظر إلى الواقع نظرة عقلانية سنقرر أن المادة لا تقى
ولا تخلق من العدم والطاقة لا تقى ولا تخلق من العدم وإنه لا شيء يوجد
تلقائياً من اللا شيء وحينئذ إذ نعلم يقيناً إنه لا بد من وجود قوة حية عليا قد
أوجبت هذا السكون ومن فيه .

ولقد يعلن العلم إن ذلك النبات الذي يأكل الحشرات أو ثمر « شطاره »
من النبات المادى إذ أن النبات الذى يأكل الحشرات أكثر حساسية وانفعالا
من النبات المادى .

ولكن النبات كما نعلم يخلو عادة من وجود جهاز عصبي مركزي وبذلك فإن النبات لا يفكر وليس له ذلك الاحساس بالآلم الذى يشعر به الحيوان .

فحين يقوم الانسان بذبح طائر مستأنس أو حيوان يقصد الحصول على عضلاته واستخدامها كبروتين حيوانى فأنتا نجد أن كمية ضخمة من طاقات الآلم مستهدفة فى عملية الذبح أو القتل ، أما حينما تقطع شجرة من مسكانها فأنتا لن تتألم ولن ترى أيا من طاقات الآلم أو عذاب .

وإذا كنا نلم ذلك فمن هو الذى جعل النبات الذى لا يفكر يقوم بتنفيذ أخبث الحيل وأكثرها دقة لأسر الحشرات والتغذى بها . . فهو يفرز رحيقاً حلواً يفرى الحشرات بتتبع مصدره ... فإذا ما انطلقت الحشرات إلى داخل تجويف معين قفل عليها خط الرجعة وأفرزت عليها عصارات هاضمة تقوم بهضم وتحليل الحشرات تمهيداً للتغذية منها ويحق علينا أن نتساءل أو نسأل أنفسنا هل يعلم هذا النبات ، أن الحشرات تحب الرحيق الحلو ... وهل درست هذه النباتات علم نفس الحشرات حتى تعلم ذلك والاجابة بالطبع لا أنه لا يمكن أن تكون هذه النباتات قد فكرت إذ أنها لا تملك جهاز عصبي مركزي تفكر به ولو اعتقدنا أن النباتات تفكر لكان من الصعب علينا أن نتصور كيف أستغل الانسان هذه النباتات منذ خلقت ولصالحه دون أن تحاول إحداها أن تقاوم أو تدافع عن نفسها أو تفكر ذلك . . وإذا فلا بد من أن قوة الرحمن الرحيم قد منحت هذا النبات بالالهام قوة الحيلة التى يستطيع بها أن يخادع بها الحشرات ويتغذى بمادة جسمها وبدون مبالاة بطاقات الآلم التى مستهدفة من هذه الحشرات فى موتها ، وبالنسبة أجندى مدفوعاً للمقارنة بين هذا السلوك الفريرى للنباتات وبين سلوك ألزم به نفسه شاعرنا العربى أبى العلاء المعرى فيما من شك أنه لموقف نبيل حقاً أن يلزم إنسان نفسه بالايهدر فى حياته أية

طاقات ألم أو بمعنى أوسع ألا يتعدى بالقتل على من ذونه من الحيوانات ...
ولقد أئزم شاعرنا العربي نفسه بهذا السلوك النبيل فأبى العلاء المعري أنبل في
واقع الأمر من هذا النبات . . ولكن أبا العلاء المعري قد مات وقد تألم عند
موته وكذلك كل الطيور وكل الحيوانات التي كانت حية في عصره قد ماتت
وقد أهدرت عند موتها طاقات الألم . . . وكذلك كل حي لا بد أن يموت
ولا بد أن يتألم :

أو كما يقولون :

من لم يمت بالسيوف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

إذا فهذه الحشرات التي تغذت بهذا النباتات . . كانت لا محال ستموت .
أليس من الالقي أن يكون في موتها ما يسبب لغيرها الحياة أو يزيد فرصته
فيها .. وبهذا يكون النبات أكثر حكمة من أبي العلاء المعري .

وشيء آخر أخطأ أبى العلاء في تقديره وهو أنه اعتبر حياته على الأرض
نقمة وليس نعمة فهو يقول في هذا .

هذا جناء على أبي وما جنيت على أحد

وبالطبع هذا شيء خاطيء فالله الكريم قد منحنا فرصة الحياة كنعمة منه
هلينا إذا أنه أتاح لنا فرصة التأخير في الكون الذي نعيش فيه كما منحنا الفرصة
لنقسمو بأنفسنا إلى مراتب عليا دونها مراتب الملائكة الأبرار الذين لا يعصون
الله ما أمرهم ويسمعون بحمده بكرة وعشيا .

وهذا لا ينبغي بالطبع أن حياتنا مسئولية كبرى ملقاة على عواتقنا . . كما
لا ينبغي أن ذلك الذي يستهين بحياته ويهمل مستقبله فيها سيتحمل المسئولية
كما ينبغي أن تكون . . .

ثم كان ما ادعاه الحاقدون على شاعرنا العزيز وردحا من الزمان وهو أنه
أنكر وجود الله وكذلك البعث والحساب وأن من أقواله في هذا الشأن :
أموت ثم بعث ثم حشر . . . فذاك خرافة يا أم الزمان

وهم يدعون أن المعري كان يتعامل في ذلك بأنه ليست هنالك بينة واضحة
تثبت له وجود الله وأن الناس قد اختلفوا فيما بينهم في ذلك الشأن غير أن ذلك
كله كما يتضح لنا الآن محض افتراءات كما أن هناك ألف دليل ودليل على
وجود الله كما أن العلم والمعرفة وكل ما يأخذه الإنسان بعد النظر العقلاني ويسجله
تدلل بصدق وبصرامة على وجود الله .

ولقد أرى الله بعين الفكر واضحاً كأنهى ما يكون الوضوح ولقد استخدم
الطرق العلمية والوسائل العقلانية في هذه الرؤية فلا تزيدها إلا روعة وبهاء ،
ولقد يلجأ الكثيرون إلى الجدل الموضوعي أخذاً بالسؤال معتمداً عليه وذلك
ما نعرفه بروح العلم أو الفلسفة ويقعها على هذه الرؤية فلا يزيدنها ذلك
إلا ثباتاً وإشراقاً . . وما أعرف في عالمنا شيئاً يزيد في ظهوره للعقول عن
ظهور الله ، أن الله لا ينهى في ظهوره بل أن كل حقيقة تحمل الشك في ذاتها مهما
كانت إلا حقيقة وجود الله أننى أحميها على الدوام الحقيقة المطلقة ولقد قرأت
في ذلك أبيات شعرية . أكتبها لمجرد الإعجاب بها .

يقلى وإيمانى بفكرى وخطرى	بروحى ووجدانى أراك مغتماً
فأنت الذى تسمو إليك مشامرى	لنشكر حق أنعماً وتكرماً
وأنت الذى أرنو إليك بناظرى	وروحى بنور من جلالك تخشعاً
وأنت إلهى ما بذلك ربيبة	وأنت إله الكل والخلق أجمعاً
خلقت فسواحى يا مهيمن	ظنيرى بحبك قلبى شاكراً ومغظلاً

ومن هذا الذى تعمى بصيرته حتى لا يرى يد الله الرحيمة وهى تمتد بالرحمة إلى العالم أجمع لنعم رحمة الله كل شئ .

فلتنظروا يا بنى البشر إلى حنان الأم الذاقي نحر وليدها . . . ذلك الحنان الذى لولاه لكانت الحياة على الأرض أصعب مما تتصور ومما نطبق أو تتحمل هذه اللبوة المتوحشة التى تهدر كل يوم كميات ضخمة من طاقات الألم دون ما شعور بالذنب أو تأنيب من الضمير ، كيف تتحول أمام أبنائها إلى مخلوق لطيف حنون . . . تدفع عنهم الأذى وتضجى فى سبيلهم بكل ما تستطيع من جهد وحتى الحياة إلى آخر لحظة فيها .

وهذا الثعبان الخبيث المتوحش الذى يدمس السم فى جسم الكائن فتندفق الآلام فى جسمه وتقضى عليه بالهلاك هذا الثعبان بالرغم من ذلك تحتضن أتناء البيض زماناً . . . وترعى صغارها وتحنوا عليهم وتبر بهم كالحسن ما يكون الأب وكالحسن ما تكون الرعاية .

هكذا نجد أمام أعيننا وبوضوح هذه الشحنات الرائمة من الحب والحنان الذى تحمله كل أنثى نحو وخيدها بالفريزة أو بالالهام من الله الرحيم ومهما كانت طبيعة حياتها فالأممك فى البحر تجتهد لبيضها مكاناً هادئاً وقد تحضنهم فى قعر زماناً وهذه التماسيح المتوحشة تجتهد فى دفن بيضها فى الرمل تحت الشجر حتى تدفئ أشعتها هذا البيض وتعمل على نفسه من الحماقة أن تتصور أن السمك تدرك بالمقل أن فى هذا الحنان محافظة على جنسها إذا أن هذه الأممك يأكل كبيرها صغيرها ولكن الاصح أن تقول إن الفريزة وحدها هى التى تدفع الأممك إلى هذا السلوك وهذه الفريزة قد ألزمت بها هذه الأممك إرادة الله الرحيم أرادها جل وعلا إذ أن هذه الفريزة تمثل إرادة خفية تتبع من ذات السمكة بعيداً عن جهازها العصبى المركزى وتدفعها إلى سلوك

مفيد لا تعلم هي نفسها مبالغ فائدته أو أهميته . ومثل ذلك الاقبال الارادى بين الجنسين ومن جميع الانواع والخصائص والذى يعد أساساً ل عمران الكون فالصفر المفرد والوحش المفترس والانسان الذى يحاول التحكم فى قرائزه ، كل تلك الانواع رغم تفاوتها واختلاف طباعها تقبل على التماسل والتزاوج بإرادة غامرة تلعب من ذواتهم وبدون ماضعظ خارجى عليهم ولا يستطيع إفسان مهما كان عناده ولجاجته ان ينكر وجود قوة حية عليها قد غرست هذه الغريزة فى نفوس الخلق حفاظاً على عمران الكون وعلى أنواع أحيائه .

ولقد نجد على الحياة وفى الحياة وفى الواقع الذى نحياه صوراً إلمامية ممتعة نقف أمامها متأملين بل ولربما كان الانسان فى حاجة إلى عظات وعبر من هذه الصور الرائعة .

ولنتظروا يا معشر البشر إلى مملكة النحل إن فيها لآية أى آية فجميع النحل فى جميع العالم أجمع تعيش فى جماعات متعاونة ولكل جماعة منها ملكة وجيش يدافع عن مسكنها وشفالات أو عمال يقومون بتربية الصغار وجمع الغذاء ولتفكروا يا معشر البشر من أين يتأتى للنحل أن تنظم نفسها على هذا النظام الذى تسرون عليه فى العالم كله وإذا كان العقل ينقذ ذلك فما من شك فى أن هذا السلوك سلوك غريزى من وحى القدرة الالهية الرحمة . هل تعتبرون يا أولى الالباب .

ولنتظروا يا معشر البشر إلى مملكة النمل تلك الآلة البينة وذلك النموذج الرائع للجد والاجتهاد والنشاط واللباس فللمملكة النمل حكومة وجيش ومجلس دافع أعلى ومصانع وعمال كل يعمل فى مجال اختصاصه بدون كل وبدون تواكل ، وبكل إخلاص . . . هل يعلم المسير سارتر أن النملة إذا ما حصلت على حبة فأنها تقسمها إلى شطرين حتى لا تنبت وإذا كان نصفها ينبت

شطرتها إلى أربعة أقسام مثالة . . هل يعلم المسبو سارتر أن بعض النمل يستغل
خشرات أخرى تماماً كما يستغل الفلاح ماشيته إذ أن بعض النمل تربى بعض
أنواع من المن تطعمها وتسقيها وتحصل على إفرازات حلوة من غدة خاصة
يخسها ؟ وهل يعلم السيد سارتر أن بعض النمل يمارس مهنة الزراعة بشكل
يقارب ما يفعله الانسان ويسير النمل في صفوف منتظمة ويخوض حروباً ضارية
دفاعاً عن نفسه أو هجوماً واعتداء .

وأود أن يسأله الانسان نفسه هل الجهاز العصبي المركزي للنملة هو الذي
يملي عليها كل هذه الافعال ونستطيع في تامين أن نقول بل إن القدرة الالهية
الرحيمة تعطينا الامثال والادلة حتى نهتدى وحتى لا نضل . . .

ونظرة أخيرة إلى أنفسنا فهذا هو جسم الانسان يعمل ويؤدي وظائفه
بانسجام كامل وبغائية : وإحكام . جينما يشتد البرد فان الغدة الفوق كلوية تفرز
الإنزيم الاذرىنا ليد الذي يحول بعض الدهون المخزنة إلى طاقة حرارية وبذلك
تعود إلى الجسم حالته الطبيعية التي يشدها ولقد يقال أن الغدة النخامية أو
الغدة الرئيسية أو المتحركة أو المسيطرة التي تقع أسفل المخ هي التي تسيطر على
نشاط الجسم الحيوي وهي التي تنظم علاقات الغدد ببعضها حتى يؤدي الجسم
وظائفه بدون خلل أو تناقض وبكل انسجام . . . ولكن هذه الغدة الرئيسية
التي تقع أسفل المخ من يرشدها إلى سلوك منتظم دقيق . . أعني من يلمها هذا
السلوك المنتظم الدقيق ومن يجرها عليها بل ومن يعطيها سلطة الرئاسة على
نشاطات الجسم الحيوية كلها وبدون أدنى شك لا بد من وجود الله الرحيم التي
تلمها أن تفعل ما من شأنه الحفاظ على حياتنا وبدون أن تفكر وبرغم إرادتنا .

هذا النبات الشوكي الذي ينبت في الصحراء والذي لا يملك جهاز عصبي
مركزي ولا قبة مخية ومع ذلك نجده يؤدي وظائفه بانسجام كامل ونجده

ينظر إلى الأمور من حله فكأنه يعقل ويسمع ويرى حينما يعلم أن الحيوانات
قد تتغذى به فانه يجعل لنفسه أشواكا تعوقها ويدافع بها عن نفسه كما يجعل
أوراقه مرة وغير مستساغة لتغذية الحيوانات وحينما يعلم أن الجو من حوله جاف
وأن الماء فيه نادر فإنه يحاول ما أمكنه أن يحافظ على الثروة المائية في داخله
ولا يأنف أن يحول أوراقه كلها أشواكا حتى تقل نسبة بخار الماء من داخله متخذاً
بذلك قراراً حاسماً ومفيداً . . . هذا النبات لم يفكر في ذلك لأنه لا يملك وفق
ما يقول به العلماء أى جهاز عصبي لكن الذى دبر وقدر هو الله الذى يقدر
ويحسن التقدير ويحسن التدبير .

وإن نظرة صادقة إلى الكون وشئونه تكفى في حد ذاتها أن تبرهن لنا
على أن الكون كله قائم على أساس الالهامات والفرائض فيدون الفريضة الجنسية
التي تدفع الجنس معاً إلى التزاوج الذي يؤدي إلى حفظ النوع من الانقراض .
بدون هذه الفريضة كان المصير الأوحد للعالم الحى هو الانقراض كما أنه بدون
فريضة عطف الالهات على أبنائهم كان هلاك الأبناء محتماً وكان الهمام للعالم
الحى حتماً محترماً وهكذا نعلم يقيناً أن وجودنا على الأرض لا يأتي من تفكيرنا
فحسب أو أن كفاحنا على هذه الحياة وانتصارنا على عوامل الفناء ليس بفضل
نظرتنا العقلانية للعالم واستفادتنا من هذه النظرة فحسب بل هو أيضاً بتدبير
حكيم عليم وهبنا من الفرائض والالهامات ما يساعدنا على مجابهة الحياة والانتصار
على عوامل الموت فيها أو عوامل الاندثار بها ما نحمده وعلا عليه ونشكره
دوماً ودواماً .

وذلك في واقع الأمر ما يدفعنا عقلانياً إلى الإيمان بالله حل وهلاكنا يدفعنا
أخلاقياً إلى الإيمان به سبحانه وتعالى . كنظم من مظاهر النيل الاخلاقي في
زهدهم الحياة .

المبحث السادس

في رحاب الايمان

الايمان الفطرى باﷲ القادر للعليم

الايمان بالفطرة لا يعنى إطلاقا الايمان بالوراثه . . . فالايمان بالوراثه قد يعنى التقليد الأعمى ، تماما كما يقلد البنغاه أصوات من حوله من الكائنات دون أن يعى منها شيئا . . لكن الايمان بالفطرة يختلف عن هذا كثيرا .

وما أعنيه بالايمان بالفطرة هو إيمان ذلك الانسان الذى لا يقمع نفسه فى فلسفة أو منطق ولا يشغل عقله فى تفكير أو جدل عقيم . . . لكنه يسير طبقا لما توحى إليه طبائع الأمور وطبقا لما يوحى إليه عقله ووجدانه . . فى هذه الحياة .

فالانسان يرد إلى العالم ضعيفا لا خول له ولا قوة . . . فقواه الجسدية لا تكفى لاستمراره فى الحياة إلا إذا أمده المجتمع بالعون . . . كما أن قواه العقلية تكون فى المعتاد ضعيفة :

لكنه يجد من معونة المجتمع المتمثل فى عطف أبويه ما يكفيه وما يعينه على خوض بحور الحياة بثبات وقوة . . هذا الانسان بعد أن ينضج عقليا . . لا تستغرب إطلاقا أن يسأل نفسه عن مصدر هذا الحنان الدافق الذى كان فى صدر أبويه نحوه وهو صغير . . . والذى منحه القوة على الصمود أمام تحديات الحياة رغم أنه لم يكن يملك من القوة ما يكفيه لمواجهة تيارات الملاك .

فاذا ما سأل الانسان نفسه هل والدم قد فسكروا وأمعنا التفكير قبل أن

يقررا ضرورة مده بالمعطف والرعاية . . كقرار هتلائي في مقصود . . لثاته
وبالطبع سيعلم أن والديه فضلا ذلك بإبحاء خفي خارج عن إرادتهما . . أعاما متلما
تمعطف الآتي في الطيور والوحوش علي أبنائها . . وهو إذا ما قرر ذلك فانه
يؤمن تقائيا بوجود قوة عليا قد غرست هذا الإيحاء الخفي بالمعطف والحب
والرعاية في نفس أبويه أو في نفوس الأحياء جميعا . . ويكون مستمتعا
للإيمان بالله سبحانه وتعالى والناسك بدينه كل تلك التساؤلات قد تم في
المقل الظاهر . . ولكن بطريقة موضوعية وسلمية وقد تم فيما يسميه علماء
النفس بالمقل الباطن أهني الإحساس الخفي . . ويؤدي لا شعوريا إلى إيمان
الإنسان وثقته بالله . . ومع مرور الأيام نجد متفقا لأحكام دين الله بكل
ثقة وبكل اطمئنان ونجد يدافع عن الدين بحياته ويبدل في سبيل نصرته النفس
والمال . . وكل ما هو غال وعزيز .

وقد يتأمل الإنسان في حاله وكيف يتبدل ضعفه قوة وخونه أمنا وكيف
تكونت لديه نظرة عقلانية إلى أمور حياته . . ثم قد يسأل الإنسان نفسه عن
سر ذلك . . وكيف صار إلى ما صار عليه وقد يعرف الإنسان شيئا عن طبيعة
جسمه ودقه صنعه وكيف أن أعضائه تعمل بانتظام وأحكام وبدون أن تبلى أو
تصدأ . . . وكيف أن جسمه يعمل بترباط . . دون أن يفكر في ذلك أو يقم
نفسه في عمل جسمه أو يرشده إلى ما يجب أن يكون . . ثم قد يسأل نفسه عن
من أحكم له بليانه ومن أوجد في جسمه هذا الترابط وهذه القوة .

وبالطبع أنه لا بد أن قوة عليا قد أوجبت هذا الترابط وهذا الانسجام .
ويكون مستمتعا لهذه القوة وشكرها على ذلك . . كل ذلك أيضا قد يتم
بصورة ظاهرة وقد يتم كاحساس خفي يشكون في العقل الباطني ولا يمكنه يؤدي
في الحالين إلى إيمان قري بالله الواحد الأحد العظيم .

واقف تتصكون لدى الانسان فكرة عن نفسه . . . في أى مجال من مجالاتها فهو حين يتأمل شكله الظاهري يجد شكلا متناسقا في أحسن تقويم حيث يجد قامة مستقيمة . . . وهينان جميلتان بمنحان وجهه كثيرا من الجمال والرونق . . . فوقهما مباشرة . . . شعر خفيف وبينهما أنف يتنفس منه الهواء . . . ويشم به الروائح . . . وتحتة فم يزبنه أسنان بيضاء وهكذا يجد من شكله الإنسان المتناسق ما يحمله على القطع بأنه لا بد من إله حكيم فنان هو الذى صوره وصور بنى جلده على شكله . . . وعلى هذه الصورة الجميلة .

وهو حين يتأمل الجهاز الدموى الموجود فى داخله يشعر أيضا بالقدرة والاعجاز تجاه من صنع هذا الجهاز الدورى . . . إذ أنه يشاهد قلبا دقات نابضا يدفع الدم فى أوعية وشرابين وفى دورة كاملة متناسقة . . . يساعدها ويتم عليها قلوب لمقاومة تضخ ماء الحياة إلى الأوعية مرة أخرى . . . وهو يعلم أن كل المليمتر مكعب من دمه يحتوى ملايين الكرات الدموية الحمراء والى تحمل الأكسجين بأمانة . . . من الوسط الخارجى أو من الرئتين إلى جميع الخلايا والأنسجة الحية فى الجسم البشرى ولقد يزداد عجبه حين يعلم أن هذا الدم يجرى أيضا ملايين من الكرات الدموية البيضاء التى تطارد الأجسام الغريبة عن جسمه وتقضى عليها قضاء مبرما . . . كما أنها تقاوم الأمراض المختلفة مقاومة مستميتة . . . وتحاول ما وسعها الجهد أن تقضى على أطوارها حينما يقابل ذلك بعقل نقي . . . خال من جرائم الماطفة أو من الوهم والخرافة لا بد وأن يثبت لديه أن الذى أوجد كل هذا إله قادر عليم يقدر فيحسن التقدير . . . ويدبر فيحسن التدبير . . . هو حين يتأمل كيف كان ضعيفا عند وروده إلى الحياة الدنيا ثم صار فيها قويا ثم يرتد فى الكبر ضعيفا كما كان . . . لا بد وأن يستفيد من ذلك العبرة السنية والموعظة الجميلة .

ولقد يجد لزوماً عاينه أن يعتقد أن الطعام الذي يتناوله هو السبب المباشر لنموه وقوته وذلك ما يجعله يطيل التأمل والتفكير ، لولا شعورياً . . . كيف استطاع جسمه أن يحول المواد الميتة إلى مواد حية ويضيفها إلى تركيبه الحي ويزداد بها طولاً وعرضاً وقوة ،

ولقد يتأمل في جهازه الهضمي فتأخذه الروعة أى مأخذ . . . فله لسان يتذوق به الطعام وأسنان مختلفة الأشكال والأنواع تطحن هذا الطعام وتمزقه . . . ومعدة يهضم فيها الطعام ويتحلل إلى عناصره الأولية . . . وأمعاء تتم هذا العمل على تخير وأحسن الوجوه ولقد يعجب الإنسان حيناً يعلم أن في تجويف أمعائه مخلوقات حية ودقيقة تنتج فيتامينات لا غنى للإنسان عنها ولقد يتساءل الإنسان من هذا الذي أوجد هذه المخلوقات الدقيقة . . . لصالح الإنسان وكضرورة من ضروريات حياته وحينئذ يتبين تماماً أن قوة عليا قد أحكت صنع الجهاز وجعلت جدران الخلايا دقيقة للغاية حتى يمكن أن تسمح للغذاء المهضوم بالانتقال من فراغ الجهاز الهضمي إلى داخل الجسم أو إلى مادة الخلايا الحية ومن ثم يكون مسقداً للإيمان بالله . . . ويزيد إيمانه قوة . . . كلما أمعن عقله . . . ونقى جوهره .

ولقد يتأمل في جهازه العصبي . . . سواء من حيث الظواهر السطحية التي يراها طافية على سطح الواقع . . . أو من حيث الحقائق العلمية التي يراها أولئك الذين يتعمقون في الواقع إلى أعماق البحث العلمي .

فلقد يجد غريباً أن يستسلم في الال لنوم لا يسمع أثناءه صوتاً . . . ولا يرى خلاله شيئاً . . . ولقد يمر بمر به مخلوق أو كائن حي . . . وأنه يؤذيه ذلك المخلوق ويسبب له الضرر دون أن يحس هو شيئاً أو يلقبه إلى شيء . . . ولقد يجد غريباً أن يرى في نومه أحلاماً قد تكون سعيدة سارة وقد تكون مزعجة .

ملئمة بانفصات ولقد تألمه أحلامه بفعل أو سلوك معين قد يكون فيه له
نفع كبير . . .

ولقد يجد له عقلا مفكراً . . . ونظرة عقلانية إلى الأمور قل أن
ينجيب . . . فيمن أن الذي جعل مضغة من اللحم تفكر لا يمكن أن يكون
إلا إله قوي قادر عليم . . . وقد يكون ذلك الفكر كله ظاهراً . . . وقد
يكون متخفياً . . . ولكنه في الحالين فكر . . . وليس انقياد أعمى أو تقليد
مسخوخ . . . إذ أن ذات الانسأت ومستقبله الحقيقي أهم من أن يتركه لتقليد
المسوخ أو الانقياد الأعمى .

ولقد يبهره الجمال . . . جمال الكون وجمال مخلوقات فيه . . . جمال هذه
الزهرة المتفتحة بفوح منها عطرا وشذا . . . جمال هذه الأشعة الذهبية لشمس
الأصيل وهي تنعكس على الماء . . . جمال الخضرة الباسحة في الربيع . . . والماء
ياحبها ، ويجوس خلالها جمال هذه السماء الصافية . . . وقد انعكس صفائها
على وجه الماء . . . أو جمال الوجوه الانسانية التي قد تبهره جمالا . . . بل قد
تفتنه وتسحر ليه وتجعل الال له صديق فكر والنجوم له رفاق رحلة طويلة
لا تنتهى . . . وحينما تعصف بنفسه نسمة الجبل فانه يصبح وقد دق إحساسه
معظما ذلك الذي أوجد الجمال . . . وموحدا وشاكرا وطابدا .

ولقد يرهبه العنف . . . هزف هذا الكون الفسيح الجليل . . . فلقد يهتج
البحر فيتحول من كائن جميل إلى كائن عنيف كأقصى ما يكون العنف . . .
ولقد يبدو هذا البحر قاسياً رغم جماله . . . قاتلا رغم ما يبدو من رفته . . .
ولقد يبتلع أخوة له من بني جلدته ويذيقهم كأس المنيّة الموبين أحشائه . . .

ولقد يتعصف الرعد ويرقي البرق . . . حتى لتنزل من السحب ناراً

تُحرق الشجر الأخضر حتى ليصير عظاما وتقتل كل من تلمسه أو تقترب منه من أخوته ومن بنى جلده . ولقد يصيبه الزعر حينما يرى السماء وقد تلبنت بالنيوم حتى صارت كبحر هائج . . ويرى البرق يبرق بين ثديها . . ويسمع قصف الرهود . . ولقد يفكر وهو في كل هذا فيمن يمكن أن يلجأ إليه . . وأن يستغيث به . . فلا يجد الا من أو جده على هذه الحياة وحينئذ يؤمن أن الذي خلقه على هذه الحياة هو الله الواحد الأحد . . هو القوة العليا في الكون والسيطر على هذا الكون . .

ولقد يجد آباءه وأجداده من قبله قد ماتوا وواراهم تحت التراب بيديه أو بأيدي بنى جلده من الناس . . ولقد يجد في كل يوم أخاه يموت ويشوى تحت التراب . . ومن هنا يمز عليه أن يذهب هباءً ويمز عليه أن تكون كل قيمته على الأرض ما يستطيع احرازه من لقمة لن يكون ختامها إلا صرارة الموت وأله .

ولقد يجد الموت يتربص به في كل خطوة . يحمله الميسكرات والجرائم ويحمله سلاح البغي والمدران . ويحمله الحظ النائر ولا يمكن أن يجدهما يؤمن به نفسه من الموت إلا أن يعتقد أنه سيرد إلى العالم مرة أخرى . . ليفوز باجر ما قدمت يداه . ولقد يجد أحبائه قد فار قوة وماتوا . . وحينئذ يكون عزاءه على هذه الدار أنه وهم سيردون مرة أخرى .

وهو يؤمن في كلا الحالين أنه لا بدله من خالق لأن الشيء لا يمكن أن يخلق من لا شيء . . وأن هذا الخالق العظيم وهو الذي سيرجعه إلى الحياة . مهما ظلال الزمن بعد موته . . فذلك وعدمه رسل الله لا يخاف الميعاد . وكاذ كرت آتفاقد يكون كل هذا تفكير يوهى فتقول عنه أنه تفكير ظاهر .

وقد يتكون بالادعى فنقول عنه أنه تفكير باطن ، لكن كل منهما تفكير وليس
اتقياد أعمى أو تقايد محسوخ ، أما أولئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر
فانهم يحتمرون فطرتهم ، أعنى يحتمرون تفكيرهم الباطن أو الظاهر .

وخلاصة القول أن الايمان بالله واليوم الآخر تقرر النفس الانسانية والعقل
والضمير الانسانى إقراراً تاماً وأيضاً إقراراً تلقائياً بصرف النظر عن مدى
ذكاء العقل عند ذلك الانسان أو مدى ثقافته ، فالإيمان بالله سبحانه وتعالى
هو مظهر من مظاهر الانسانية نفسها أو هو مقوم من مقوماتها ، وهو أيضاً
عامل من عوامل تثقيف الانسان وتعليمه ثم هو أيضاً أساس لهضته في حياته
كلها ، وأساس لاحتساسه بالسعادة والامل وبالأمن والسلام .

اللانهايات في الفكر والواقع

في هذا العالم الذى نعيش فيه ، وفي عصرنا هذا ، ظهرت لغة الارقام
واحتلت مركزاً هاماً في الفكر الانسانى ، كوسيلة دقيقة ولاقباس والتقدير
فى شتى مجالات الحياة ، ولقد استخدمت الارقام فى المصور السالفة ، بيد
أن استخدامهما كان بسيطاً ، وفى حدود ما تقتضيه ضرورات الحياة ،
كعدد الايام التى مضت على حادث هام ، أو كمدا يملكه فرد من النخيل
أو من الماشية :

أما الآن ، وبعد أن تقدمت وسائل القياس وتحسنت أساليبها ، فقد
استخدمت الارقام فى مجالات ضخمة ، وفى مهام دقيقة ، وعلى سبيل
المثال فقط ، استخدمت الارقام فى تحديد المسافة بين الشمس والأرض ،
وأيضاً بين نواة الذرة ، واحد البصكروفتها ، وكما نعلم ، المسافة بين

نواة القدرة وأى الكثرزون تابع لما صغيرة جدا تقدر بوحدة الانجستروم وعلى واحد على مليون من المايكرومى بالطبع مسافة محدودة أو كمية محدودة .
أما المسافة بين الأرض والشمس فهى مسافة كبيرة جداً تبلغ ٩٦ مليون ميل ... ورغم ذلك فهى مسافة محدودة أو كمية محدودة . . . وهناك نجوم تبعد على الأرض بمسافة مائة سنة ضوئية . . . ومع ذلك فهذه المسافة تعتبر مسافة محدودة .

وقد قرئ في أذهان الناس أن كل شيء له أول وآخر . . . وله بداية ونهاية مهما بلغ بعده ومهما بلغت غايته . . . ولقد يحق علينا أن نسأل ونحن في عصر الأرقام . . . هل هناك شيء ليس أول ولا آخر . . . أو وليس له بداية ونهاية .

وقبل أن نبحث هذا السؤال . . . أود أن نتأمل قليلا المعنى الكبير الذى ينطوى عليه . فهذا النجم الذى يبعد عنا مليون مليون ميل نعتبر المسافة بيننا وبينه كمية محدودة . . . وهذا النجم الذى يصلنا ضوءه بعد مائتى عام نعتبر المسافة بيننا وبينه كمية محدودة . . . وإذا فنحن نفى بالكمية اللانهائية . . . هذه الكمية التى لا تنتهى أبداً ولا يمكن قطعياً أن نعبّر عنها بالأرقام . . . مهما تخيلنا . . . ولقد نجد واقعياً أن مسافة بليون بليون ميل . . . مسافة لا شك كبيرة وهى غاية في السكبر لكنها فى الدف اللانهائى كمية محدودة وأى كمية محدودة تعتبر صفراً بالنسبة للكمية اللانهائية . . . فإذا تساوىنا هل إذا تخيلنا أن الكرة الأرضية محوفة مثل كرة القدم . . . ثم ميلئناها تماماً ببطاقات صغيرة . . . مكتوب على كل بطاقة بليون بليون بليون ميل . . . هل يقترب مجموع هذه الاعداد من المد اللانهائى الذى نقصده . . . ، والاجابة على ذلك تكون أننا لو كررنا هذه العملية مليون مرة أو حتى ألف بليون مرة فالتنا

كمية لانهاية فأنى أذكر أن الوجود الذى نعيش فيه ككل يعتبر مقدارا لانهايا من حيث الحجم إذا لا يمكن أن يكون لهذا الوجود بداية كما لا يمكن أبدا أن يكون له نهاية فنحن نعيش على بقعة صغيرة من هذا الوجود هي الأرض التى يلفها غلاف غازى ثم على بعد منها نجد ثقبين وكواكب المجموعة الشمسية ثم على بعد آخر قد نجد نجما مثل الشمس تدور حوله مجموعته من الكواكب مثلما تدور الأرض حول الشمس وكلما بعدنا فى الفضاء الجوى كلما شاهدنا نجوما أو كواكب لا يستطيع الانسان عددها ولقد نسأل أنفسنا ماهو الجدار الذى يحده فراغ الكون بحيث يمكننا أن نعتبره نهاية هذا الكون الذى نعيش فيه وبالطبع لا يمكن أن يكون جدار أى جدار يتهى عنده الكون أو نحكم به على الكون بأنه كمية محدودة إذ أن كل ما يمكن أن نتخيله جداد هو فى الحقيقة من مقومات هذا الكون فالمواد الصلبة بكل أنواعها من مكونات الكون والسوائل بكل أنواعها والغازات وكذلك اللاشئ أو الفراغ من مكونات هذا الوجود الذى نعيش فيه وإذا ما غادر الانسان مجال الجاذبية وأخذ يسبح فى الفضاء الكونى فإنه لن يصل إلى نهاية ولا يمكن بهال من الأحوال أن يصل إلى نهاية . فهو قد ينزل خفيفا على كوكب الزهرة ثم ينادى بها إلى زحل أو عطارد وقد يغادر مجموعتها الشمسية إلى أى نجم آخر ولكنه لن يصل إلى نهاية . وإذا ما تخيلنا أن هذا الرجل يندفع بأضعاف سرعة الضوء وفى اتجاه واحد فإنه لا يمكن أيضا أن يصل إلى نهاية . . ومهما كانت فرصته من مسيرة الزمن . . قد تمضى مليون سنة أو حتى بليون سنة ولكنه أيضا لن يصل إلى نهاية . ويمر من عند آلا نهائيا من السنين ولكنه أيضا لن أن يصل إلى مانهاية ولا يمكن أن يصل ولعل من الطريف أن تصور رجلا يملو فى الفضاء فى اتجاه واحد

بذيه الوصول الى آخره . وأنه يمدو بسرعة تساوى مليون مرة في سرعة الضوء . . . ولعل من الطريف أيضا أن نذكر أن هذا الرجل يعد ومن قبل أن توجد الأرض . . . ما زال يمدو الى الآن . . . هل يصل هذا الرجل الى نهاية الفضاء . . . والاجابة على ذلك كلا . . . اذ أن الفضاء لانهاية له . . . فإذا ما نساء لنا وهل يمكن بعد بليون سنة . . . والاجابه كلا لا يمكن على الإطلاق اذ أنه يمدو خلف نهاية غير موجودة على الإطلاق ولا يمكن أن تكون موجودة حتى في خيالنا أو تصورتنا ومن هنا ندرك أن هناك في الواقع الذي نعيش فيه مقدار لانهاية هذا الفضاء الذي يسبح فيه كوكبنا الأرضي . . منذ خلق . . أو منذ أعلن انفصاله عن الشمس كما يقول العلماء .

والفضاء يحتوى أيضا على كميات لانهاية من المادة . . وقد يبدو هذا الأمر غريبا . . وقد يقال لى : أن كمية مادة الأرض محدودة . . وكمية للشمس محدودة . . و كل نجم كمية محدودة ومجموع الكميات المحدودة تعتبر كمية محدودة . . وإذا كانت الكميات التى يحتوى عليها كوكب الأرض كمية محدودة . . وكذلك كميات الاجسام التى يحتويها الفضاء اللانهاية محدودة . . فان عدد النجوم والكواكب والاقمار التى يحتوى عليها العالم هدد الانهاية ذلك أن النجوم والكواكب والاقمار منشورة في رحاب الكون أو في الفضاء اللانهاية . . وفي كل ما بقعة من هذا الفضاء نجد نجما أو كوكبا . . وهذا ما يثبت باستحالة عكسه . . على طريقة فرويد الاثنائية التى يعلن فيها ووافقته في هذا الاعلان أن الحقيقة هي تلك الحقيقة التى تفترض أولا بطلانها ثم تثبت بالبرهان العقلانى بطلان هذا البطلان . وهو يقضه ما يردده المثل العاوي من أن نقي النفي اثبات . . وينفس هذا المنطق . . نحن نفرضي أن هناك جد فاصل كل ما يمدو يخلو من المادة . . وليكن العالم والى قبل

يؤكد لنا أن هذا الحد باطل وغير موجود ، وبالتالي يثبت بطلان هذا الافتراض الأخير أو يثبت بطلان البطلان وتثبت معه الحقيقة القائلة بأن الكون لانهاى فى حجمه ولا نهائى أيضا فى كمية المواد التى يحتوئها ، وهذا ما يجيب أن يعيه كل حى يدرك ، ثم بعد ذلك يذكر ليدرك حقيقة فى هذا الكون وحقيقة مبدعه ومبدع الكون معه وفى ذلك فقط تكمن قيمة الجناء وأهميتها .

الله . . . وكيف لم يبدأ ٢٠٢٠٠

لا شك أن العالم الذى نعيش فيه عالم هام بالنسبة لنا ، إذ أنه يحتوئها داخله ، ويحتوى معنا قدراتنا وقيمنا ومستقبلنا الحقيقى .

كما أنه لا يمكن بأى حال أن نجد فى رؤوسنا عقول تفكر وتدرك وتمى ثم لا نستخدم هذه العقول فما يجلب لنا النفع ويدفع عنا كل ضرر ، وما من شك فى أن الحاضر السعيد شئ هام يسعى الانسان لتحقيقه بكل ما أوتى من قوة للعقل والتفكير ، كما أنه ليس هناك أدنى شك فى أن المستقبل الحقيقى شئ هام ، يجب على الانسان أن يسعى لتأمين نفسه فيه بكل ما يملك من مقدرات .

وكما ذكرت سابقا فإن النظرة العقلانية إلى العالم هى ضرورة واجبة تفرضا علينا طبيعة وجودنا فى هذا العالم ، وليس شيئا نستطيع أن نخاطره أو نرفضه تبعاً لموانا أو مزاجنا الشخصى ، وأول ما يسمي أنظارتنا فى هذا العالم أو أم ما يستبرهيه ، تلك الحقيقة الهامة التى يبتها بالتفصيل فى الفصل السابق ، وهى أن العالم الذى نعيش فيه عالم لانهاى من حيث حجمه كما أنه لانهاى من حيث كمية المادة التى يحتوئها .

وإذا كانت النظرة العقلانية إلى العالم ومن فيه قد أملت علينا أن نؤمن

وجود إله قوى قادر ، خلق تلك المواد وأخضعها لنظام دقيق فلا بد بداهة أن نعلم نحن أن هذا الإله القوى الذى خلق كميات لانهاية من المادة فى فضاء لا نهائى ونظم هذه المساحة فى الفضاء اللانهائى وفق أسس وقواعد تنظيمية ، معينة لا بد بداهة أن نعلم أنه هو أيضا لا نهائى فى قوته وفى عظيمته وإذا كنا نعتبر أن حجم الفضاء مقدار لا نهائى ، فان الاعداد التى يمكن أن تكون منشورة فيه ، أيضا مقدار لا نهائى ، وتكون كميات المادة التى تحتويها النجوم وتلك الأقمار مقدار لا نهائى .

وهذا هو المهم ، بل هو أهم شئ يجب على الانسان أن يعتبر به فى هذه الحياة ، إنك أيها الانسان تعيش فى كوكب الأرض الملقى فى الفضاء وحولك فى هذا العلم كميات لانهاية من المادة أوجدها الخالق العظيم من لا شئ . ثم أخضع ما فيها من جاد لنظم معينة وجعلها تسير على قواعد وأسس ثابتة . ثم أوصى والمهم القرائن فى الاحياء من خلقة .

ونحن تؤمن به ، لان النظرة العقلانية إلى الكون وإلى دقائقه تجعلنا غملى به يقينا ، حتى لقد نود أن نفنى الحياة بكل لحاظها فى طاعته ، وجرى لنود أن تتحول كلية إلى طاقة من الشكر ومن الحمد والثناء الجليل لربنا وهولانا . وفى الايمان بالله ربنا حياة ، وسعادة لحاضر ، وأمن للمستقبل الحقيقى الهى يجب إن تنتظر إليه باهتمام وهناية .

ولقد نحمد المولى القدير ونشكره على أن أوجدنا من العدم وعلى أنه أنخضع العالم المادى من حولنا لاساسات ونظم تتيح لنا الحياه الواحدة السعيدة . ولكننا نحمده جل وعلا أكثر وأكثر لانه هدايتنا إلى نوره ، ففتح بذلك طريق السمو بعبادته ، طريق الشرف بالتذلل إليه ، وإلى ما لا نهاية ، ولقد أطبل التأمل فى كل ذلك دون أن أدرك منه ، فهذه الصورة الفريدة التى أيقن

ويعتقد بها عقلنا الانساني وآمن بها ، وراجا أمام عينه ولمسها الإنسان لمساً
وبكل حواسه .

كميات من المادة موجود في هذا الكون ليس لها نهاية ، وتميز الأرقام
عن تحديد كميتها ، ونحن أيضاً مادة تعيش كجزء محدود بالنسبة للكل الانهائي .

ونظرتنا العقلانية إلى العالم تعلن لنا أنه لا يمكن أن توجد ذرة واحدة
من المادة من لا شيء وتعلن لنا أن هناك خلقة قويا كبيرا قد خلق كل هذه
المواد . وأوجدها من العدم .

كما أن ما نجده من نظم ثابت تسير عليه جمادات الكون ومواد الطبيعة
يؤكد إيماننا ويزيده إذا أنه يجعلنا نعتقد أنه لا بد من وجود قوة عليا قد
أخضعت هذه الجمادات لأسس ونظم وقواعد ثابتة .

ولقد نجد الفريزة في الاحياء من خالق ربنا جل وعلا ، إرادته خفية تدفعهم
إلى أشياء نافعة أو ضرورية لوجود الحياه على هذا العالم ، فيشدد بإيماننا بالله
تعالى ، حتى يبلغ من القوة أقصاها ، أو نحن ننتهي أن يكون كذلك .

ولقد أجمع من كثير من الناس منكراً من القول وزوراً وباطلاً وبهتاناً
وإعاًمينا ، فهناك منهم من يقول : آمنا بالله هو الذي خلق المصكون ،
وأنت تقول أنه ما من شيء يوجد من العدم ، وإذن فن هو الذي أوجد الله
من العدم إذا كان الأمر كذلك .

ولا يحب أن أحكم مواطني في الامر ، وأن أجيب هؤلاء إجابة منطقية .
مستخدماً على الذي وهبني إياه خالق العظيم ، ومستوحياً من نظري العقلانية
إلى الأمور ، وإلى العالم وبين فيه ، ولقد يكون من الضروري أن تطرح على

بساط التبعث من الألام ، وصريحاً هو : بدأ الله ، وهل بدأ منذ ألف سنة ، أو منذ مليون سنة ، أو حتى منذ ألف مليون سنة .

... وهل من الممكن أن تخيل لحظة مرة في مسيرة الزمان لم يكن فيها الله موجوداً ثم بدأ بعد مرورها ، هذا هو جوهر الحقيقة وهو الالم في وجهة نظري والذي يجب أن تدرك فيه قبل أن يضل وقبل أن نهمل ، والحقيقة التي يجب أن يدركها كل إنسان أن الله جل وعلا لم يبدأ ولن ينتهي ولا أقرو ذلك بمزاجي . ولكنها الحقيقة التي تظهر نفسها بوضوح وتبرهن على وجودها بما لا يدع للشك مجال وأود أن تدرك الانسانية جمعاء أن قيمة الانسان الحقيقية هي في كونه لا ينتهي أبداً ، أي أنه يخلد ، وإذا كان الانسان ينتهي فانه لقيمة مطلقاً لكل جهوده التي يبذلها في حياته ، ولكل ما يحققه فيها .

ولكننا نؤمن بأن الانسان يخلد ولا ينتهي بمعنى أنه يحيا بعد موته ثم يعيش إلى ما لا نهاية ، ولقد يقول لي قائل إن الخلود أمنية تمنها الانسان منذ الأزل ، وحققها له رسالات السماء لكنه ما حققه يشك صدق هذه الرسالات ، ويشك في صدق تحقيق هذه الامنية .

وأقول ، أنه بالرغم من أن العالم في عصرنا هذا يقاسونه ويمتازون بمعاناة شديدة من المرض والجوع والخطو ، وبالرغم من أن رجالا العلم يخوفون الانسانية من نجاعة شديدة لا تبقى ولا تدر ، وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الناس يدعي أنه يمكن للانسانية ما لا نهاية ؛

وأود أن أذكر أنه اذا كان الانسان يأمل في الحياة إلى ما لا نهاية رغم أنه يدرك أن عوامل الفناء في هذه الحياة قد انتصرت على كل من سبقه من البشر ، وأنه حتى ولو انتصر على عوامل الفناء فإنه سيخسر جوعاً ، إذ أن

موارد العالم التذائية تكاد تضيق عن أجيال البشر . . فكيف لا يثق لنا
أن تمخيل أن الله الذي يؤمن به . والذي سيرجعنا أحياءا بعد الموت سيخلدنا
في الدار الآخرة لنعيش الى ما لا نهاية .

ولا يصعب علينا حينئذ أن ندرك أن كل المخلوقات قد بدأت وأن الإنسان
قد بدأ ولن ينتهي . . وأن الله الذي خلقه لن ينتهي وهو لم يبدأ
وكذلك فأننى أستطيع أن أقول بثقة واطمئنان أنه مادام كل شيء في
هذا العالم قد بدأ . . فلا بد من وجود آله خالق يخالق هذه القاعده ويرتفع
منها لم يبدأ . . ولم يخلق .

ذلك أننا لابد أن نؤمن بأن الله وهو سر هذا الوجود والقوة العظمى
فيه لا بد أن نؤمن أنه لم يبدأ ذلك ان الله الذى خلق كميات لانهاية
من المواد ويمتلك قدره لانهاية على الخلق لابد ان نؤمن انه يخالف لطبائع
الأمور التى اعتدنا نحن عليها .

كذلك فنحن نؤمن في هذا العالم أن الماده لا تنفنى ولا تستحدث ونعتبرها
بدنيهية . . ونعتبر أنه من أبعد المستحيلات أن ينتج انسان أو أى كائن من
اللاشئ شيء وبدون وسيلة لكننا مع ذلك نؤمن أن الله أوجد من اللاشئ
مادة وبدون وسيلة . . وليس الأمر قاصر على ذلك بل نحن نؤمن ان الله خالق
من اللاشئ كميات لانهاية من الماده .

وهذا بالطبع ما يميز الانسان حتى عن تصوره أو تخيله . فالله جلت قدرته
قد تحول بقدرته وبدون عناء . . اللاشئ ان الفراغ المطلق إلى كميات مادية
لانهاية لها . . ولا تستطيع الارقام ان تعبّر عنها . . أو عن حجمها .
ذلك يدل دلالة قاطعة على أن ذلك آله الكريم خالف للحوادث ولما جرت
حجبه فهاهنا وأنه لم يبدأ . . وإن ينتهي .

فإن الله الذي خلق كميات لانهائية من المواد . هو أيضا لانهائي في قدرته .
لانهائي في عظمته لم يبدأ ولن ينتهي والبدا والانهاء أشياء عهدناها في العالم وفي
طبيعة الأشياء . فهما كان النهر طويلا . فلا بد له من منبع ومصب . ومهما كان البحر
متسما فلا بد له من حدود لكن الله مولانا أجل من ذلك وسبحان الله عما يصفون

الله وكيف لم يخلق . ٢٢

وأعود الآن إلى السؤال المجيب الذي برده أناس يزعمون أتباعهم
للمنطق الصحيح ولكل ما يستقيم مع طبائع الأمور . . . يزعمون احتراماً
لإنسانيتهم وتقديراً لها . . . وم في الواقع على النقيض من ذلك أنهم يقولون :
آمنّا بأن الله هو الذي خلق الكون . . . وأنت تقول أنه ما من شيء وجد من
العدم . وإذا فمن هو الذي أوجد الله من العدم إذا كان الأمر كذلك .

وأقول لهم يا أذهياء المنطق آمنتم بأن الله هو الذي خلق الكون . . ومن
فيه من الأشياء . . . وأنه مخالف للحوادث . . فكيف ينبغي من فطنتكم أنه
أيضاً لم يخلفه أحد لأنه جلا وعلا مخالف للحوادث . . ولكل ما عهدناه من
طبائع الأمور .

فمهدنا بطبائع الأمور أن لكل شيء خالق أو صانع . لكن الله جل وعلا
مخالف لما عهدناه من طبائع الأمور . . وليس له خالق أو صانع . . ثم كيف نقر أن
الله يخلق من العدم مادة وكميات لانهائية منها وهذا مخالف لطبائع الأمور
ولما عهدناه عليه منها . إذ أنه ما عهدناه من طبائع الأمور إن الإنسان أو أي
كائن حي لا يستطيع أن يوجد من الأشياء شيء وبدون وسيلة . . لكن الله
العظيم جلت قدرته خالف ما عهدناه من طبائع الأمور وأوجد من الأشياء
أشياء عظيمة . . ومواد لا متناهية وبدون أية وسيلة أي بقدرته وحده وكيف

نقر ذلك ثم لا نقر أن الله يخالف لطبائع الأمور من حيث أن لكل كائن حي
سانع ولكنه جل وعلا ليس له خالق أو صانع ، ثم أنه مما يستقيم مع المنطق
الصحيح أن الكائنات كلها قد أوجدت وخلقت فلا بد أن يكون هناك من
خالف القاعدة العامة من حيث أنه لم يوجد أحد ويكون هو الذي أوجد
الكائنات جميعها من طير وسمك وحيوان وإنسان .

ثم أقول إننا نؤمن بإيماننا كاملاً بأن الله الذي خلق الكون ومن فيه
لحظة زمنية ، لم يبدأ ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك على الإطلاق أية لحظة
زمنية ، كان الله فيها غائباً ، ومعنى آخر ، أنه جل وعلا موجود في كل زمان ،
ولم يكن هناك زمان يخلو من وجوده جلا وعلا .

وإذا قلنا هناك على الإطلاق مكان منطقي لأن يسأل الانسان عن
خالق خالقه ، ذلك أنه لم يبدأ فكيف تسألني من خلقه أو من أبداه .

أقول لكم : يا دعياء المنطق أنه لم يبدأ على الإطلاق ، وتصرون على
سؤال من أبداه أن هذا شيء عجيب أنكم تعبدون إلهاً خلقكم جميعاً من
لا شيء ، وخلق معكم مواد العالم اللامتناهية كمية وجهاً ومقداراً من لا شيء
كما نضم أجسادكم ، وجعلها تنمو ، وخلق في هذا العالم لكم فرصة عادلة للحياة
كما جعل وخلق فيها فرصة أ كيدة للموت تعيشون ما شاء لكم الرحمن ثم
أنتم ، هوبون .

يا أوجي إليكم ككائنات حية ، غرائز وإلهامات ، تدفعكم دفناً إلى
الحفاظ على وجودكم أنفسكم تعبدون إلهاً لا نهائياً في قدرته وفي عظمته (يخالف)
لحيواتكم لم يبدأ ، ولين ينهي ، فيسبح الله عما يصنع ، وهناك أيضاً من
يظن في الضلالة أو الأثم : سائلاً أو يسائلاً أو ليس من المحيل أن يكون هناك

إلهان أو ثلاثة قد اشتهر كرا في خلق الكون وتشيدته ، من العدم ومع جميع
 الخلق للحوادث ، وعلى درجة عظيمة من القوة والعظمة ، وأقول لأدعياء
 المنطق مرة أخرى : لا تسرفوا في الضلالة والالتم ، أنتم تؤمنون بأن هناك قوة
 لا نهائية حية قد أوجدت هذا الكون ومن فيه ، هي قوة الله جل وعلا وأنتم قد
 أدركتم إن ما نعينه نحن بأن هذه القوة لا نهائية إنها قوة لا نهاية لها وهذا
 أيضا يخالف للحوادث إذ أننا نؤمن أن قوة الله ليست كنسبة محدودة ولكنها
 كنية لا نهائية بمعنى أن الأرقام تعجز عن تقدير أي نسبة منها مهما كانت ضئيلة .
 وبمعنى أن الأرقام مهما كانت كبيرة لا تمثل منها إلا الصفر وإذا سألتكم لماذا
 نعتقد نحن ذلك ، لكان جوابي لأن هذه القوة قد أوجدت من اللاشيء شيء ،
 أو مادة حية ، وهذا في حد ذاته ما لا يستطيع الاتيان بها إلا من يتصف بصفة
 خارقة هي قوة اللانهاية ، وعدم البدء وعدم الانتهاء ، وإذا فاه الله الذي يخلق
 كميات لا نهائية من المادة . لم يبدأ ولن ينتهي ، ذو قوة لا نهائية وعظيمة لا متناهية .
 وأقول لأدعياء المنطق : ما معنى أن نصف الله ربنا بالقوة اللانتهائية معناه
 أن الله يملك في هذا الكون اللانهائي قوة يضيق عنها الكون النهائي وأمعني
 بذلك أن قوة الله جل وعلا ليست كمية محدودة ولكنها كمية لا متناهية .
 معناه أن هذا الكون اللانتهائي فيسيطر عليه وعلى من فيه سيطرة كاملة . وأقول
 لأدعياء المنطق إنكم تدركون أن الكون لا نهائي ، وإن أي قوة محدودة
 تعتبر صفرا بالنسبة للكون اللانهائي وإنه يستطيع السيطرة على هذا الكون
 اللانتهائي إلا قوة لا متناهية وأنه لو كان هناك ألف إله لكل إله قوة محدودة
 لما استطاعوا معاً أن يسيطروا على هذا الكون لأنه لو كان لا نهائياً .
 أما أن يكون هناك إله واحد ذو قوة لا نهائية فانه يستطيع وبسهولة السيطرة
 على هذا الكون ومن فيه ولله يقول لي أدعياء المنطق : ولما إذا لا تفهمون .

أربعة أو خمسة آلهة لكل إله قوة لا متناهية .. وحينئذ يكون جوابي : أن القوة
اللامتناهية التي يتصف بها الله القدير .. تظم كل الكون وتسيطر عليه ومن
ثم فانه لا يمكن بحال أن تشاركه في الكون قوة أخرى .. وأن معنى قوة
لا متناهية إنها قوة غير محدودة .. أو أنها تسيطر على الكون الغير محدود .
ومعنى ذلك أن قوة أخرى لا يمكن أن تعمل لها إلا الصفر .. ومعنى ذلك أن
الله واحد لا شريك له في عظمته أو في قوته .. إذ أن قوته وعظمته لا نهائيا
نطلب عفوه ورضاه ولا نخشى إلا إياه .

كما أننا إذا تصورنا هناك إلهين في هذا الكون .. ولكل إله قوة ولكل
إله خلق .. لما استحال علينا أن نتصور أن يذهب كل إله بخلقه ويسن فيهم
شرائع ويأمرهم بأوامر .. ويكلفهم بتكاليف يختلف محتواها عن فهمه من
الآلهة .. ولما استحال علينا أيضاً أن نتصور أن تدب اختلافات بينهم .. أن
يحارب الواحد منهم الآخر حيث نحن بين هذا وذلك .. وهذا ما لم يحدث
وما لا يمكن أن يحدث :

يمرر ذلك أن الله جل وعلا قد أرسل رسالة بالبينات والهدى داعياً إلى
عبادته وحده مبيّناً لنا وهو الصادق القوي إنه واحد لا شريك له .. وإذا
يا عبادة الله قوموا إلى ربكم فابدين شاكرين .. ساعين نحو سعادة مستقبلكم
الحقيقي .. تاركين وراء ظهوركم ادعياء المطلق والفلسفة إتباع الجدل العقيم
والتقسطة الكلامية .. يتلاعبون بالألفاظ والعبادات .

يربطني قولنا أحدهم قائلاً : أنت تؤمن أن الله على كل شيء قدير . فقل
يربطني الله أن يخرج من البركوت قلبك لتكلم أن هناك كلام لا محل له من

الأعراب ، فكلامك لا عمل له من المقول إذ كيف تطلب متى أن أتصور أن الله وهو قوة عليا في الكون قوة لا نهائية حية تعقل وتسمع وتبصر وتقدر وتدبر ، وتسيطر على الكون كله ، بالرغم أن الكون لا نهائي في حجمه وفي كمية المواد التي يحتويها ، ويدبر كل شيء في الكون رغم أن الكون لا متناهي فيحسن تدبيره ، وتقدير كل دقيقة في الوجود رغم أن الوجود لا متناهي فيحسن التدبير .

كيف متى أن أتصور قوة الله العظيمة الموجودة في كل الوجود والموجوده في كل زمان ومكان ، فليس هناك مكان تسب خطيع منطقياً أن تقول أنه خال من قوة الله وليس هناك من زمان خلا أو يخلو أو سيخلو من قوة الله العظيمة ، كيف تطلب متى أن أتصور أن هذه القوة تعجز عن فعل شيء ما ، هذا ما لا يمكن أن أتصوره ، ليسكن الحق والمنطق يا أدمعاه المنطق أن الله على كل شيء قدير .

ثم ، إنه لو كانت قوة الله تخرج من الكون ، لما كان الله إله يستطيع كل شيء إذ أن القوة المحدودة لا تستطيع السيطرة على العالم ، ولكن سبحانه الله عما وصف ، والله القوة اللامتناهية التي لا يخلو منها أي ذرة من أي مكان من هذا الكون ، الذي لا أول له ولا آخر ، وأخيراً ، هل يليق بالإنسان أن يتجدي خالقه وخالق الكون معه ويقول له إذا كنت على كل شيء قدير فهل أنت قادر على الخروج من الكون ، أنه الجدل العقيم الذي لا يجدي ولا يفيد وأنها السفسطة الكلامية التي لا قيمة لها إلا قيمة مبالية ، فهي تهدد العقائد وتحطم إرادة الخير في العالم وتقتلع منه كل ما نبعث خيره ليحل محله أشواك الشرور والأذى ولا أدري لماذا كل هذا ، لماذا الجدل العقيم لماذا السفسطة الكلامية ، وما الذي يدعونا لها وطريقنا واضح لا عوج فيه ولا انحراف .

نحن نحرص على مستقبل آمن ونفكر ، نحن نجد حولنا الكون يحفل بالمادة
ونفكر نحن ندرك أن الشيء لا يمكن أن يوجد من اللا شيء أو من ذات
اللا شيء ونفكر ولستنتج ، وحينئذ نقرر بالواقعية وبالمنطق صادقين أن لا بد
من وجود قوة عظمى قد أوجدت المادة التي نحن منها ، ثم نفكر وننظر
للأمور نظره عقلانية وذلك كما بينت سلاحنا الوحيد الذي نجا به به تحديات
الزمان ، ونجد حولنا في هذا العالم كثيراً من الجمادات تخضع للأجسام
ونظم وقواعد ثابتة لا تتحيد عنها ، رغم أن ماعيننا من طبائع الأمور أن الجماد
ليست له أى إرادة لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لمن عداه وحينئذ نقرر أنه لا بد
من قوة عليها قد أوجدت هذه الإرادة أو قد منحت هذا الجماد إرادة بالنسبة
لنفسه أو لإرادته بالنسبة لمن عداه كما نجد حولنا وفي الكائنات الحية على وجه
الخصوص إرادات لا تتبع من جهازها الإرادى ، ورغم ذلك فهى ضرورية
للبقاء الكائنات الحية وضرورية لاستمرار نوعها ، وحينئذ ندرك إدراكاً
وقيقاً أن الله أوجد هذه إرادات قوة عليها وأن الذى خلق الالهامات والفرائز
في الأحياء قوة حكيمه عليها هى قوة الله الحكيم ، وحينئذ نؤمن وتيقن من
وجود خالق السماوات والأرض ، ووندغ جانباً وسادس شياطين الانس والجن
ندوا فتراملت الآيتين منهم .

المصير

في المصير خدوة الجاهل من كلغة ، وهذه الكلمة الخاصة التي تفرق في حقيقة
الإنسان بين الشرط والاختصاص ، وبين الأبطال والخوف ، بين ذلك الذى
من يقود حياته قولها المنكر والترسدة ، وقولها المنكر والنداء ، أو قولها
الخطيئة والخطيئة وبين ذلك الذى يستقبل بالجنة والفرق والدم يستهين بالالم
مدمر وإنه فى عالمه على الحقيقة ، والحق ، والحق ، والحق إلى درجات عليا

المصير ، وإياها من كلمة ، هذه الكلمة التي تفوق بحسم وجلالة ووضوح
بين أولئك الذين هبثوا بمقدرات شعوبهم وبقيم أمتهم حتى أخذتهم نشوة
السكر والمريدة أو الذين شربروا من دماء الأبرياء حتى أحمرت عيونهم
وانتفخت أوداجهم أو الذين هاشوا حياة سعيدة ورعدة على أشلاء الأبرياء من
بنى جدتهم ، وبين الذين باعوا أنفسهم وجادوا بالدم الذكي وبالروح والمهجة
في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وفي سبيل أن يكون الدين كله لله ، وفي
سبيل حرية أوطانهم ، وعزة بلادهم ومجدها ورخائها (وكلمة المصير) .
تعنى للإنسان شيئاً هاماً بالغاً في أهميته أقصاها ، ذلك أنها تحمل له معنى
الامل ، ولولا الامل ما سكننا وما كانت لنا قيمة فالامل يفتح أمام الإنسان
أبواب العمل والامل بحث الإنسان على الاستبسال ، في مقاومة الأمواج
الباطلة التي تتكسر تيمناً على صخره الحق الصامدة ، الاستبسال في مقاومة
المواقب الآتية والرياح الخبيثة التي مافئات تنهب بسموها على سفينة الحق التي
تحمل أتباع الحق وعباد الرحمن الواحد الاختصاص وتجرى بهم فوق طوفان
الضلالة الذي أفرق القرون العشرين بأمواجه ، وتجرى بهم إلى الله مجربها
ومرسىها إلى الأرض الأمان إلى كلمة المصير حيث يجد أولئك الذين أحبوا
الحسنى وحيث يضج بالمذاب من ضل سواء سبيل ، ونحن نعيش بالامل ونشهد
منه سمادتنا كما نستمد منه القوة والعزم والصمود ، وسعادة الحاضر بدون
أمل لا تعنى للإنسان الأشيئاً ثانياً لا قيمة له نحى هذه الكلمة في خلد ذاتها
كلمة مطاطة وغير محددة فأين هي سعادة الحاضر لو ما فر الطريق إليها ، وتوغل
يسلك الإنسان إليها طريق الدل والثروة ولا أعرف للمال قيمة تزيد عن كونه
وسيلة لا بد منها لتأية لا غنى عنها أسمى وسيلة للحصول على تهنؤات الحياة
ولقد محتطب أناس كاذب أو يقنعون تهاره تحت أوهج الشمس لقيه ما يلبه وقه

ورمى أولاده ، لكننا نحمد سعيداً بهذه الحياة راضياً عنها بدرجة تزيد عن ذلك الذي قد يؤذيه من الحرير ويعتبره خشناً وغير رقيق ، ثم حتى لو تحققت مسعادة الحاضر وكانت على أقصى ما تكون أو ما يمكن أن تكون فإن مسيرة الأيام تجري وتجوى ويأتي ذلك اليوم الذي يختم هذا الحاضر السعيد وينتهي بمرارة الموت التي تجب ونعفى كل لذة مهما كانت ، بل كل ما سعادة أو سرور شعرت به الإنسان في حياته ، تماماً كجماعة من الناس أخذوا يأكلون صكراً متفاوتاً في كميته فذلك لا يجد إلا الفئات وذلك يأكل حتى يعتلى ، ثم فرض عليهم أن يختتموا كل ما أكلوه بشراب مر من الصير أو من العلقم يذهب كل ما كانوا قد تذوقوه من حلوة السكر ويشمرم جميعاً بالمرارة ، القاعة فلا تفاضل بينهم ولا نستطيع ذلك .

بل انني أرى ويقره قلى أن من عاش حياة خشنة جادة ستكون مرارة الموت شيئاً ليس عليه بالغريب ولكنها فقط تفوق كل مرارة ذاقها لكن ذلك المر الذي عاش حياة مرفهة ورغداً ستكون مرارة الموت شيئاً غريباً عليه يتجرع كأسها في عالم وأبى يفوق كل خيالاته وكل تصوراته .

ولذلك نلحظ الموت والمرارة قائمة والعذاب شديد في لحاظ قادمة . ولا بد أن لكل كائنات حية تلكات بقا مغيرة الزمان أن يرد الخوض الذي شرب منه أن يكون له أو أن يملأه وتطاولت أيامه ويتركه معنى الخسار ومقراة .

ولمنا المترقون به يشمرم قليلاً من عمر الزمان أو قليلاً من مسيرة الأيام وحتى يتسلمهم مسيرة أيامهم إلى لحاظ حرجة يتحدد فيها مستقبلهم الحقيقى ، وليضحك الضاحكون كثيراً فلا بد يوماً أن يترقوا لهم قياضاً ولا بد يوماً أن يهت عيونهم للالامة حين يتسلمون جميعاً إلى لحاظ الموت لحظه النهاية ، وليريد

المرء يدرك ، الذين يحلوا لهم ان يقدوا وعيهم وأن يتجردوا من انسانيتهم
وأن يهربوا من واقعهم فلاحظت المرء معدودة تمضي وسريما ما تمضي
وتسلنا ولا بد لها أن تفعل الى شعنة الحزن الى شعنة الالم للذي تحس معه
بحقيقتنا وقيمتنا .

وفي ظلال الحزن والالم يشعر أولئك الذين أنكروا على الانسان حقه في
التفكير والنظر العقلاني أنهم كانوا مخطئين كما يشعر أولئك الذين أغرقوا
أنفسهم في دوامات الجدل المقيم والفسطة الكلامية أنهم كانوا على غير بصيرة
وعلى غير هدى كما يشعر كل من ضيع حياته مدى مستغفها وبانسانيته معها
بأنه عبث بشيء عمين .. وبأنه ضيع فرصة لن تعود للسمو بنفسه وبانسانيته
إلى مراتب كان من الممكن له أن يتلها لو احترم ذاته الانسانية وتظر إلى
الكون نظرة عقلانية نقية بدون عبث وبنقض الاهتمام .. يندم حيث
لا ينفع الندم ويتحسر ولا تزيد الحسرة إلا مرارة وتألما .

وابدا لا تأسوا ولا تحزنوا بامعاشر الماضين . . قالنا من الحاضر إلا
المعنى والمقيم على الأرض نعيد قادرا رحمانا . . ولنعملوا بالأقل وبدون
يأس أو قنوط . . فلن يضركم حدودكم بأكثر من الموت الذي سيحرب هو
كأسه لا محالة . . كما أنكم لا محالة شاربه لا تخفوا لحر الشمس ولا تهذوا
برد الشتاء فلن يكون أشد مضاضة على أنفسكم من ألم الموت ومرارته ولن يغيثوا
حياتكم بكل لحاظها في جهاد ونضال ، سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة
الذين أنكروا انسانيتهم وقيمهم هي السفلى

وها هي الأيام تمضي وتم سرافقا كيرق خائف أو كريح طاصف أو
تطير مشروع .. ولحظ العمر يجري كالسحاب . . وكل ما يبدو للعين
بعيد في زمانه عمر مسيرة الأيام ثم تهدو وتترك خلفها قري قدنا لم يمد قدنا

قد غدا أمستا أو قبل ذلك الالامس ، وريبع العمر يمضى وسريعا ما يمضى
وخريف العمر يأتي وسريعا ما نراه ، والليل يتلوه نهار ثم يسود النهار
بظلام الليل وتدق منا القلوب والوقت يمضى ومع كل خفقة للقلوب العمر يجري
ويبدو نهار خلف ليل سابق الزمن ، فالليل يأتي خلوسة والصبح يأتي
بالهجن والثرمان يدور في حياة مظلمة والظلام يطول نفس مجرمة فلا ،
لا تركنوا النهار أولا تياسوا من ليل يحلبه نهار والصبح يسود بليل ،
قد مضى الالامس كباتي لم أكن فيه ، كخيال جاح لا أنس يدربه أو كظل
ساج لا شيء يحويه ، أو كعرق غاطف لاح ثم اختفى ، وهكذا
تفتى أياي وتزعمثل ذلك تفتى أخلاي وأرى مصيري ويراني ، ولا
تبددوا أيامكم سدى فبين الزمان الخراء تطاردكم في الليلة الظلماء أروني
قلبي النهار ، ومهدة الأيام تسلككم إلى القحاط القائمة إلى لحاظ الموت ،
إلى لحاظ المستقبل الحقيقي ، وطوي لكم يا معشر الأبرار في رياض الله
الذي خلق الأرض ركورها ، خلق الرياح وسيرها ، خلق الطير وصورها
خلق الأنهار وأجرها ، كل ذلك من العدم ، من اللاشيء من ذات اللاشيء
ويبدون وسيلة ، وأوجد الضوء والظلام وأوجد النفس للأمام وأوجد الصوت
والكلام والعلاقات وأبقاها ، ولقد نسال أنفسنا كثيرا عن ماهية الطاقة
فالضوء طاقة أو هو ترددات في الشيء وفي اللاشيء تجعل العين تبصر الأشياء
ولقد يقول رجال العلم أنها أمواج تخرج من مصدر الضوء أمواج من الطاقة
ما أن تستقط على العين شيء يؤثر فيها وتعملها تبصر ولكن سببها أن في
ولمناذا لا يؤثر موجات الحرارة وهي طاقة أو موجات الصوت في العين وتعملها
تبصر

وتضيء الشمس وهي لنا جميع الطاقة ، فكل شيء ضوءا متوجها بالحرارة

ويُنقل إلينا الضوء دون أن نتنقل إلى الشمس أو نتنقل نحن إليها ويقطع الضوء مسافة طويلة وبسير إلينا رحلة شاقة وعصية ، يسير فيها اللاشيء ، فكيف باللاشيء تحمله .

ولقد يقول لنا العلم ويقرر لنا رجاله أن طاقة الضوء تسير في الهواء في شكل موجات من مجال مغناطيسي متعامد عليه مجال كهربى ، وأقول سبحانه سبحانه الواحد الأحد الحى الذى لا ينام الذى جعل لنا المجال المغناطيسى والكهربى يسيران متعامدان سى وتسعين مليون ألف من الأميال حتى يصل إلى عين الإنسان فيضىء أمامه الحياة سبحانه من جعل الجمال المغناطيسى والكهربى المتعامدان يدخلان العين وبكل أمان ويتقلان للانسلخ نور حياته .

ولقد يقول رجال العلم أن فى العين شبكة حساسة للضوء تتكون من أهرام تسمى أهرام مليجى ، وحساسة سبحانه من بنى أهرامات مليجى فى كل عين وجعلها للضوء حساسة سبحانه من وهب الإنسان عقلاً ذكياً ، وغينا ترى وأذا تسمع ولسان ناطق فصيح ولقد يسأل الإنسان نفسه ما معنى أن نشعر بالحرارة والبرودة وما هى الحرارة والبرودة وما هى ماهية كل منهما ولقد يقول له رجال العلم قولاً يفسر له ظواهر الأشياء لكنه لا يعرض إلى أعماق مغزاها ومعناها .

فسبحانك يا عاتى خلقت كل هذا وأحسنيت لهم صنما وقدرت كل شيء فأحسنيت تدبيراً وتدبيره فأحسنيت تدبيره وهذه الأرض تدور حول تلك الشمس من ماضى المهور والليل ونهار يمتد ثم يعود تغلظ الدنيا وعصى نورها ثم يأتى الصبح والنور يعود ورغم أننا نعلم علم اليقين أن الأرض جماد لا يعقل ولا يملك أية إرادة بالفسية لنفسه أو بالنسبة لمن عداه وما زال كوكب الأرض يدور حول شحمه بلا حيل .

وما زالت ظواهر النجوم تعطينا طريقا من الآمل .
وما زالت الرياح والأنهار تجري بلا كلل
وسبحانك ربى .

الاسماك فى البحر ترجو رحمتك وتسعى إلى طعام قدرته لها وطيور الجو
فى سماءها تطلب العطاء من خالقها وتخرج غصا إلى ارضاقها وترجع بطانها
برزق يادها .

وكل قطرة ماء : وكل نسمة من هواء أنت خالقها ، وباسم الله تجري فى
السماء أو فى الروضة الغناء ، حيث تسقى زروا أخضر يهفر ثم يصير هشيئا تذروه
الرياح وتوقد منه نيرانا تتاجج تشع علينا الدفء وتجعلنا فى حيوة .

ولقد يستلهم النبات من قبض رحمة ربى ما يزيد به حسه وإحساساته فيحور
أوراقه إلى أشواك حتى يحفظ بذلك مائة من البخر . ويدفن طعاما مرا فى
أوراقه حتى يذهب بذلك عن نفسه أذى حيوانات العشب برغم أنه قد يضع
رحيقا خلوا فى أزهاره حتى يشرك الثعلب فى التخفاظ على نوعه دون أن تدري
ولقد ينصب الاشراك للحيوانات بوقعها بحيلة ماكرة حتى يتغذى على جسمها
ويستمد منه عناصر لازمة له .

ولقد تسببهم الإسماعيل من فضل ربى طريقا طويلا تسير فيه دون ما ضل
ويعود منه صغارا وكانها قد جليكتهم من قديم الأزل .

والطير والحيوان يرعى صفاره ويحنو عليهم من أين ذاك الحنو أو ذاك
الحنان ؟ أنه من الحنان المنان فى قلوب الأمهات قد غرسه وعلى مر الأجيال
قد أقيم . ولولاه لاصارت الدنيا جحما . لكن بفضل ربى أبقاه الجنة ونميا
والطير والنبات والحيوان أرواحا أرواحا وتقبل نحن فى حرص على تجديد
أجيالنا بقوة الهامك المولاي .

لا شك أن في ذلك لآية أى آية أظهر من الشمس وأكثر منها وضوحاً
فهذه الآتى من السمك تقذف بيضها فى الماء بكميات كبيرة ثم يمر الذكر
من السمك ليلقح هذا البيض حتى يصير صالحاً للفقس دون أن يتفقا أو ييرما
المعامدات .

ولقد يعلن لنا رجال العلم أن السمك يبيض كيات كبيرة من البيض لأن
كثيراً منه يتلف أو يموت فقسه وهو صغير ومن ثم فهو فى حاجة إلى كيات كبيرة
من البيض ليحافظ على نرعه ولكن هل أدرك السمك هذا أبداً أنه
لم يدرك فجأزه المصعب لا يفكر ولا ينظر هذا النظرة العقلانية إلى واقع
الأمور .

ولكن رحمة الرحمن قد أدركته بنورها الفياض فدفعه دفعا لا إراديا
إلى الحفاظ على نوعه وتجهيد أجياله .

وفى كل شيء للرحمن آية ، فى البحر آية ، فى السماء آية ، ومع كل قطرة من
قطرات بحار الأرض آية يدل على الحكمة والقدر .

فهذه زرقة البحر ، الزهنية ، تلقى إليها النظر المجرد فتد إلينا أضداد
الجلال والحكمة ويتوه النظر فى الزرقة التى تمتد بأشكالها من تمتد الزرقة أو
تستطيع أو تحيط ، تماماً كما تصح الموسيقى الشجيرة التى تغيب الغنكز والوجدن
فى لغاتها الشجية ، حتى لنكاد نرى من خلالها أنفسنا ، وحتى لنكاد أنفسنا أن
تراءنا ، وأن ترى الوجود خربلتنا .

ولقد يقلب الإنسان ناظره فى زرقة السماء حتى يظفر به الفلكسفر ،
ولقد يتأمل الأسماك فى زرقة هذه السماء من فوقها ، فى الليل والنهار ، فى
الاصيل والدمجى ، ومع إشراق الشمس أو أفولها ، أى أى إلى أى إلى أى إلى أى إلى
الليل أو غيا ، والعقوى اك يا معشر الأشيار ، فى رخص الله الواحد الأحد .

الذي فكرتم كثيرا في خلقه وفي قدرته وعظمته الذي آمنتم به بقولكم
وقلوبكم وباروا حكم .

والذي دافعتن من دينه حتى آخر دمق في حياتكم وإلى آخر قطره من
دمائكم

فسمت بذلك نفوسكم . وفتت بذلك سرائركم وترقيت بالانسانيتكم
إلى ثمرات عليا والآن فنهيتا لكم المصير أو المستقبل الحقيقي فتلك الكلمة
الحاسمة قد منحكم سعادة لانهاية سعادة مستديمة سعادة لن تجدون
بعدها شقاء أنها سعادة السلام أنها سعادة اللانهايات التي لا يحدّها
حدود ولا تقف في طريقها ارقام فلقد قدرتم انسانيتكم حق قدرها
ولقد آيتم ان تحقروا وجودكم على هذه الحياة

ولقد ساعدتم إلى الحياة بجذبة لا تعرف العيب وتضميم لا يعرف الاغمال
إليه سبلات ففكرتم اليها نظرة عقلانية جلدة تدركين أن النظر العقلاني إلى
الحياة هو كل ما تملكون من سلاح لمحاربة تعدياتها

واقدر رأيتم ذلك الكون من حولكم يحفل بالمادة ويزدهم بها . . فهناك
تلك الارض أو ذاك القمر وهناك هذي الشمس أو ذاك الشجر . . وهناك
الهواء والبحار . . والنجوم . . وحين رأيتم بعين العقل وبعين العلم وبعينه
أن الاشياء ليس شيء . . ولا يوجد شيء منه مهما كان ومهما كانت احواله
تقمن وعرفتم ان الذي خلق الشمس والقمر الله كبير ، عظيم هو الله الرحمن
الرحيم

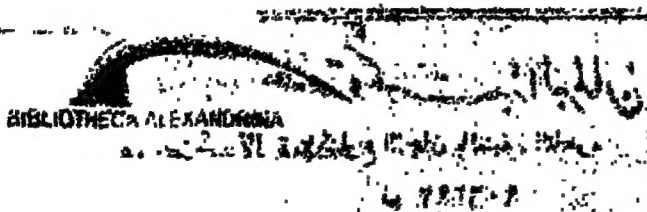
ولقد رأيتم انكم في الكون كمن في غمام في الكون منتظم
في احواله والاسلام

وكيف ينتظم الجناد وعنه تم لم بأنه لا يملك على نفسه إرادة ، وليست له على ذاته أى إرادة لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لمن عساه ، وحين رأيتم الضوء الذى ينتظم فى جريانه ، وحين رأيتم الأرض التى تجذب نحو الشمس وتدور حول نفسها ، عرفتم إن الله الذى أخضع الجمادات لأمره ونظم ثابته هو الله الذى أوجدها من العدم .

وحين رأيتم الأسماك تبحر فى البحور عن الطعام ، وحين رأيتم الأسماك تسمى نحو غايات ترام ، وتعود منها لحياتها المستقرة فى سعادة عرفتم أن من خلق السماء أثارها ، وتدفعها إلى تبكون كذلك رحمة منه بها وليتفكر أولوا الألباب ، وحين رأيتم الأنواع والأجناس من كل نوع تتكاثر وتتوالد بنظام ، وانتظام — وبالحام من الرحمن كان . بالناس ، ضلانا على صراط الإله . وحين رأيتم الوحوش ورغم ضراوتها وحشيتها تحمل الحب والحنان لأبنائها ، وكذلك الثعابين والقرود والإنسان والحيوان ، كل يعطف على مخلوق منفصل عنه وبدون ما إرادة ذاتية منه ولكن يدافع من الرحمن خفي ويدافع منه أعظم من كل إرادات البشر .

وحين رأيتم كل ذلك آتكم بالرحمن جل من خلق وعبدتوه عبادة بكل ما أوتيتم من قوة وجهد وتصبرتم دينكم وصبرتم على البلوى وكأختم فى سبيله وتركتم الشكوى ، وبذاتكم النفس والتم والمهجة رخصتكم فى سبيله وفى سبيل رضاه ، الحق لكم الآن وأنتم فى مستقبلكم الحقيق أن تقولوا برضوانه . وأن تعموا بالحمد فى حياته ، تلك الجنات التى لا مرق فيها ولا حزن ولا م فيها ولا حزن ، وفيها السعادة دائمة والفرح لا يفتقر ، فى المودع والراحة فهبتها لكم ، حياة هائبة ، وسلام مقيم وخلود ، خلود أبا الانسان فطال الله

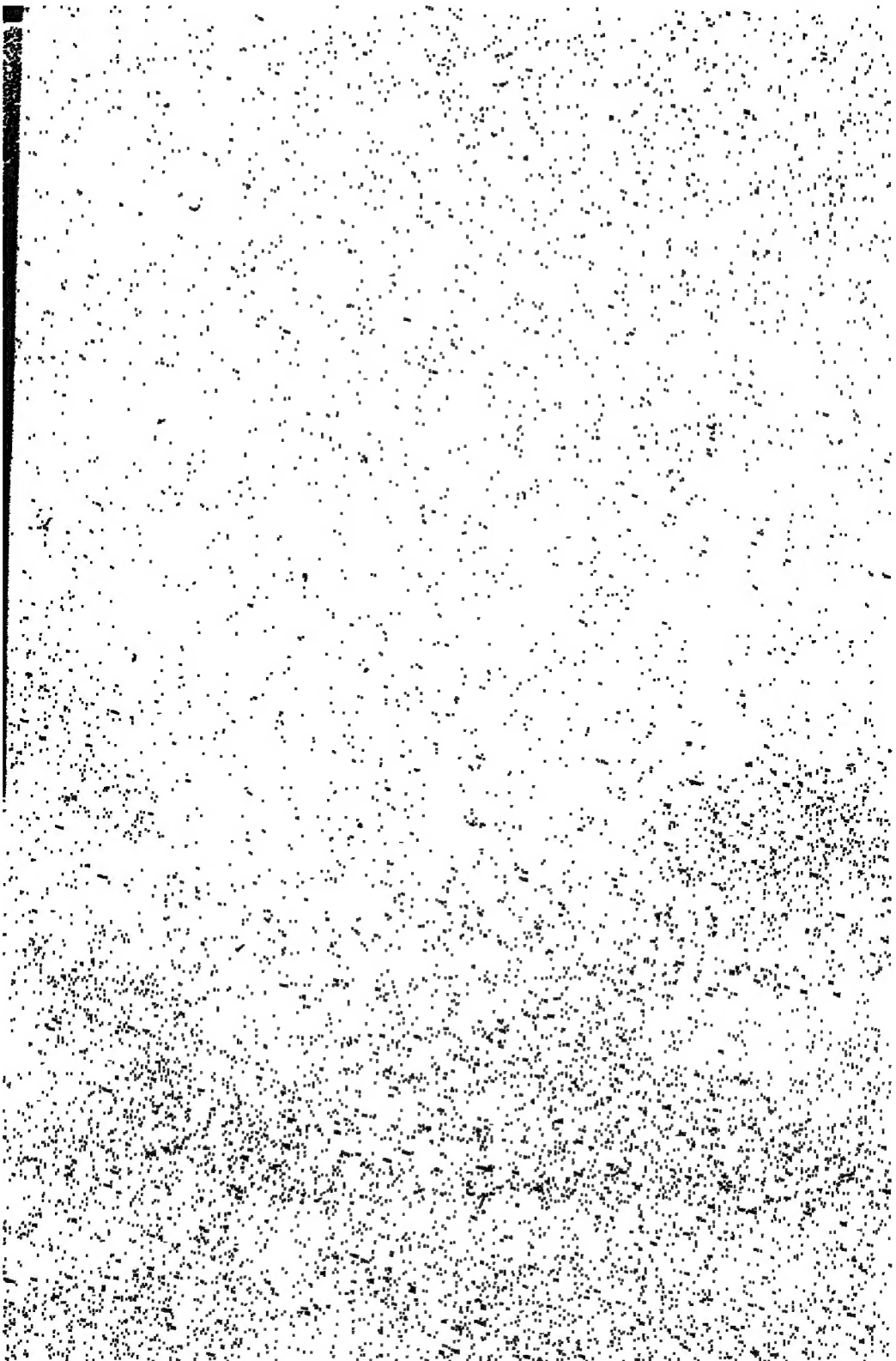
به فن الآن لن نموت لن قنهي ولن تمرض ولن يصيبك السقم ولن تنك
أو تخور قواك بل انت في عز ورخاء ونعم مستديم لا يزول وهما لا يدانيه
هـ انت الآن تنعم برضاء الله وذلك النعم وذلك المناء هو في واقع الامر
ما أرجوه لكل انسان في هذه الحياة بدافع من حب الانسانية
التي يجب ويلزم أن يغمر به قلب وأن يعمل به كل عقل وعلى
صفحات هذا الكتاب .. وبهذا الجهد المقل .. حاولت وسأحاول على الدوام
أن أذكر .. كل من استطاع تذكره بكل ما يجب التذكير به أذكر
نفسى واذكر الا نسانية جـما فهذا هو قصارى ما نستطيعه في هذا الزمان
وذلك أيضا كل ما كلفنا به الله جل وعلا حيا لافسنا وحيال الانسانية والناس
أن نذكر وانك نبلغ ما نعلم إلى الناس حتى يعملوا بما عملوا ونحن علينا التبليغ
والتذكير ولنا محاسنين عن الناس عملوا أو لم يعملوا وعانحن والله
شاكرين قد بلغنا فليشهد الناس والله هو الوكيل ولقد يسمعنني يشرقي
أن أتمثل بقول الحبيب الاعظم والنور الانم الاكل سيدنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في قوله اللهم أنق قد بلغت
الله فاشهد ؟



مطبعة ومكتبة البرلمان

٧ ملوح التجدد بالشيء : القاعة

٩٠٦٢٩٢ ن





0233540